الانكسار والانتصار في حياة الأمم

عبد التواب حلمي محمد

تمهيد:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾(١) وقال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢) وقال: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾(٣). وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق، كما تداعى الأكلة على قصعتها، قالوا: يا رسول الله! أمن قلة بنا يومئذ؟ قال: أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ينزع الله المهابة من قلوب عدوكم، ويجعل في قلوبكم الوهن، قالوا: وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت"(٤). وقال: "إذا تبايعتم بالعينة واتبعتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد في سبيل الله سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم"(٥). وقال: "لا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا"(٦).

إن الانتصار والمجد والعز والفخار لا يأتي صدفة، ولا ينزل من السماء بلا سبب، بل لا بد له من أسباب يجب اتباعها، وكذلك الهزيمة والذل والعار والانكسار لها أسباب وعوامل يجب تجنبها حتى لا تقع الأمة فيما لا ترضاه لنفسها. من هنا سيكون البحث عن عوامل الانكسار حتى نتجنبها وعوامل الانتصار حتى نأخذ بها. وفي القرآن الكريم والسنة النبوية وشروح العلماء لهما ما يستفاد منها قواعد وقوانين لا تتغير ولا تتبدل للانكسار والانتصار. من أهم هذه السنن والقوانين: الفرقة والتنازع الداخلي من أسباب

١- سورة الغافر، الآية: ٥١.

٢- سورة الروم، الآية: ٤٧.

٣- سورة آل عمران، الآية: ١٢٦.

٤- **سنن أبي داود**، دار إحياء التراث العربي، ٤: ١١١ و**مسند الإمام أحمد**، طبعة دار الكتب، ٥: ٢٧٨.

٥- **سنن أبي داود**، ٣: ٧٤٠.

٦- **صحيح البخاري**، المطبعة الأميرية، ٢: ٨٤٩، كتاب الخصومات.

الهزائم، وكذلك الوحدة والاعتصام من أسباب النصر، وكذلك الظلم والعدل، وموالاة الأعداء وموالاة المسلمين، والمعاصي وتقوى الله... كل ما سبق العامل الأول والقانون الأول منها سبب للهزيمة وعكسه سبب للانتصار، وكذلك الأخذ بأسباب القوة العلمية والاقتصادية والنفسية والمعنوية من أسباب الانتصار وترك الأخذ بهذه الأسباب من أسباب الهزيمة والانكسار.

هذه القوانين لا تتغير ولا تتبدل، فمن تمسّك بأسباب النصر انتصر، ومن تعلق بأسباب الهزيمة انهزم، سواءً أكان مسلماً أم غير مسلم. أما قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وغيرها من الآيات فتفهم في سياق مقتضى الإيمان. فمقتضى الإيمان يوجب العدل ويبعد عن الظلم بكل أنواعه وصوره، يوجب الوحدة ويبعد عن التفرق، يوجب موالاة المسلمين ونصرتهم، والعزة على الكافرين وعداوتهم، والمؤمن يزهد في الدنيا، حيث تكون في يده وليست في قلبه، والإيمان يوجب الشجاعة والصبر، فالمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف. وكل هذه المقتضيات وغيرها تفهم من حديث القرآن والسنة النبوية عن المؤمنين وصفاتهم، وما يجب أن يكون عليه المؤمن الحق، وكل هذه الصفات والمقتضيات تبعد عن الهزائم وتحقق النصر.

وقد قدمنا عوامل الانكسار على عوامل الانتصار، لأن القاعدة الشرعية الفقهية تقول: "درء المفاسد مقدم على جلب المصالح" فالابتعاد عن أسباب الهزائم مقدم على الأخذ بأسباب النصر، فحتى ننتصر يجب علينا أولاً أن نتخلى عن الأسباب التي تؤدي إلى هزائمنا. إن الاحتلال ليس قدراً مقدراً على المسلمين إذا ما انتفت شروط القابلية للاحتلال في البلاد الإسلامية. وما بحثي هذا إلا تذكير وتنبيه، فها نحن قد شاهدنا ما حدث في العراق وأفغانستان وفلسطين، وها هي السودان قد قسمت، وبقية الدول أحكمت الخطة لها. ولن تفلت بلد من البلاد الإسلامية ما لم تأخذ حذرها، فهم كما قيل: يريدون تقسيم المقسم ليسهل لهم السيطرة على البلاد. كما حدث في العقود القريبة السابقة خاصة القرن المنصرم. وها هي أهم أسباب الانكسار والانتصار.

العامل الأول: (أ) من عوامل الانكسار: الفرقة "التنازع الداخلي":

يُعد التنازع الداخلي بين طوائف الأمة من أبرز عوامل الهزيمة والانكسار لأنه يؤدي إلى ذهاب قوة الأمة التي يكثر التنازع الداخلي بينها، وقد نص القرآن الكريم صراحة على هذا العامل ونتيجته، حيث قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾[٧]. وقد جاء هذا النص في سياق

٧- سورة الأنفال، الآية: ٤٦.

الجهاد والقتال، حيث وجه الحق تبارك وتعالى المؤمنين إذا لقوا فئة أن يثبتوا، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٨]. ومن معاني الآية أن نتيجة التنازع الداخلي الفشل وذهاب الريح، والريح عند علماء اللغة في أبرز معانيها تعني النصر والدولة والغلبة والقوة[٩]. وقد ذكر الإمام الرازي أن النزاع يوجب أمرين، أحدهما: أنه يوجب حصول الفشل والضعف. ثانيهما: قوله تعالى: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ فيه قولان: الأول: المراد بالريح الدولة، وقد شبهت الدولة وقت نفاذها وتمشية أمرها بالريح وهبوبها، يقال: "هبت رياح فلان" إذا دانت له الدولة ونفذ أمره. والثاني: أنه لم يكن قط نصر إلا بريح يبعثها الله، وفي الحديث "نصرت بالصبا". قال مجاهد: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي نصرتكم، وذهبت ريح أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حين تنازعوا يوم أحد[١٠].

والتنازع بين الناس يكون حين تتعدد جهات القيادة والتوجيه، وحين يكون الهوى المطاع هو الذي يوجه الآراء والأفكار، فإذا استسلم المسلمون لله وللرسول انتفى السبب الأول للنزاع بينهم مهما اختلفت وجهات النظر في المسألة المعروضة، فليس الذي يثير النزاع هو اختلاف وجهات النظر، وإنما هو الهوى الذي يجعل كل صاحب رأي أو وجهة نظر يصر عليها مهما تبين له وجه الحق في غيرها. يقول الشيخ محمد عبده: "والتفرق والاختلاف قسمان: قسم لا يمكن أن يسلم منه البشر، فالنهي عنه من قبيل تكليف ما لا يستطاع، وليس بمراد في الآيات، وقسم يمكن الاحتراز منه وهو المراد بها. أما الأول: فهو الخلاف في الفهم والرأي ولا مفر منه لأنه مما فطر عليه البشر، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[١١] فاستواء الناس في العقول والأفهام مما لا سبيل إليه ولا مطمع في التخلص منه، إذ هو من قبيل الحب والبغض، فالإخوة الأشقاء في البيت الواحد تختلف أفهامهم في الشيء الواحد كما يختلف حبهم له وميلهم إليه. وأما الثاني: وهو ما جاءت الأديان لمحوه، فهو تحكيم الأهواء في الدين والأحكام، وهو أشد الأشياء ضرراً في البشر، لأنه يطمس أعلام الهداية، التي يلجأ إليها في إزالة المضار التي في النوع الأول من الخلاف"[١٢].

٨- سورة الأنفال، الآية: ٤٥.

٩- ابن منظور، **لسان العرب**، دار المعارف، مادة "روح"، ٥: ٣٥٥-٣٥٧.

١٠- الرازي، **التفسير الكبير** أو **مفاتيح الغيب**، دار الغد العربي، ٧: ٥٠٦.

١١- سورة هود، الآيتان: ١١٨-١١٩.

١٢- محمد عبده، **تفسير المنار**، طبعة صبيح الرابعة، ١٣٧٤هـ، ٤: ٢٠.

يقول الشاطبي رحمه الله: "كل مسألة حدثت في الإسلام فاختلف الناس فيها، ولم يورث ذلك الاختلاف بينهم عداوة ولا بغضاء ولا فرقة علمنا أنها من مسائل الإسلام، وكل مسألة طرأت فأوجبت العداوة والتنابز والتنافر والقطيعة علمنا أنها ليست من أمر الدين في شيء... فإذا اختلفوا وتقاطعوا كان ذلك لحدث أحدثوه من اتباع الهوى، فالإسلام يدعو إلى الألفة والتحابّ والتراحم والتعاطف، فكل رأي أدى إلى خلاف ذلك فخارج عن الدين"(١٣). والنتيجة الطبعية للتنازع الداخلي هي الحروب الأهلية التي عدها أفلاطون أكثر الحروب وقوعاً وخسة وحقارة، وأكد أن هذا النوع من الحروب يؤدي إلى وقوع تلك البلاد ـ موقع هذه الحرب ـ جميعا في يوم من الأيام تحت احتلال الشعوب الخارجية(١٤).

والتاريخ خير شاهد على أن الفرقة سبب من أسباب الانكسار، والتجمع من أسباب الانتصار، من هذه الأمثلة: ما حدث في غزوة أحد، ورغم أن المجاهدين جميعا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم خير الأجيال، إلا أن المسلمين تلقوا في هذه الغزوة درسا موجعا، وذاقوا مرارة الهزيمة، وقد بيَّن القرآن سر هزيمتهم، وهو تسلل الفرقة والتنازع إلى صفوف المسلمين، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَابَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾(١٥).

والمثال الثاني: حيث قضى واحد من أبطال دعوة التوحيد والتجمع عندنا وهو نور الدين محمود زنكي أكثر من عشر سنوات من سنوات جهاده، يحاول ضم دمشق إلى جبهة الجهاد دون جدوى، حيث وقف له في الطريق حاكمها معين الدين، والذي كان حليفا للصليبيين على إخوانه المسلمين، وقد أشجاهم بعداوته، فلم تنضم دمشق إلى جبهة الجهاد إلا بعد موته، وعندما انضمت دمشق وتوحدت بلاد الموصل والجزيرة الفراتية والشام انفتح الطريق لضم مصر، وبانضمامها على يد نور الدين ثم صلاح الدين كان النصر العظيم، وكان يوم حطين. وانكسر ظهر الصليبيين، واستعاد المسلمون القدس، فالعدو الحقيقي

١٣- الشاطبي، **الاعتصام**، طبعة الحلبي، ص، ٤٢٩.

١٤- ويل ديورنت، **قصة الحضارة**، ترجمة محمد بدران، الهيئة العامة للكتاب، ص ٥١ بتصرف.

١٥- سورة آل عمران، الآيتان: ١٥٢-١٥٣.

لم يكن الصليبيين بل كان العدو هو داء التفرق السياسي الوبيل[١٦].

والمثال الثالث: حرب العراق وإيران والتي استمرت ثماني سنوات، ثم حرب العراق والكويت والتي كان من نتيجتها احتلال أمريكا وبريطانيا وأذيالها للعراق وتدميره تدميراً شبه كامل، وقتل ما لا يقل عن ثلاثة ملايين غير الجرحى والمصابين، فلولا حرب العراق وإيران، وغزو العراق للكويت ما استطاع المحتل أن يطأ بأقدامه النجسة أرض الرافدين، ومقر الخلافة الإسلامية لفترة من الزمن، خاصة وأن العراق تجمع القوة الاقتصادية ـ متمثلة في البترول وأرضها الزراعية الخصبة ـ بجانب قوتها البشرية والعلمية، مما كان يؤهلها لتكون قوة محورية مهمة في المنطقة والعالم.

والمثال الرابع: قتال حكام الأندلس بعضهم بعضا، وبعدها طردهم العدو من الأندلس شر طرده وأذاقوهم سوء العذاب. والمشاهد أقوى حجة في الحاضرين فما شاهدناه ونشاهده في العراق والسودان وغيرهما خير دليل على ما سبق ذكره. إن المسلمين ما أعانوا أعداءهم على التنكيل بهم والنيل منهم، بمثل ما أعانوهم بتفرق كلمتهم وتمزيق وحدتهم[١٧].

من أجل هذا رأينا الإسلام يقف موقفا حازما من الفرقة والداعين إليها بحيث يمكن القول بأنه لا يوجد دين من الأديان دعا أهله إلى الوحدة والألفة، وحذرهم من الاختلافات والفرقة مثل الإسلام، وذلك لخطورة التنازع الداخلي وخطره على البلاد والعباد، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾، وقوله صلى الله عليه وسلم: "لا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا"[١٨]. كما منع الإسلام البغي، وحرّم الخروج على الحاكم خاصة العدل بالقوة المسلحة، وهنا نؤكد أن الخروج المسلح على الحاكم لا يجوز، هذا ما قاله الفقهاء قديما وحديثا، لأن هذا الخروج المسلح يضعف شوكة المسلمين، ويبدد قوة البلد فيسهل على العدو المتربص السيطرة على البلد والنيل منها ومن مكانتها وسيادتها، لذلك قال ابن تيمية رحمه الله، وهو المجاهد المناضل: "ما رأينا جماعة خرجت على الإمام ـ أي بالقوة المسلحة ـ إلا وكان الفساد الذي أحدثته أضعاف أضعاف الفساد الذي أزالته"[١٩]. أما الخروج السلمي وغير المسلح فهو مشروع بل وواجب خاصة إذا كان الحاكم ظالما، لأنه من باب تغيير المنكر، ورفع الظلم واجب.

١٦- حسين مؤنس، **الإسلام في عشرين آية**، مكتبة الأسرة، الهيئة العامة للكتاب، ص ١٦٢.

١٧- طلعت محمد عفيفي، **المسلمون وداء الفرقة**، مكتبة الإيمان، ص ٥.

١٨- **صحيح البخاري**، ٢: ٨٤٩، كتاب الخصومات، باب ما يذكر في الأشخاص والخصومة والملازمة.

١٩- **الحسبة** لابن تيمية: ضمن **مجموعة الفتاوى**، نشر دار الرحمة، المكتبة العلمية، ١٨: ١٦٦.

ولمعرفة الأعداء بأن مصدر القوة الحقيقي للمسلمين في وحدتهم ـ إذ لا فائدة من قوى الأفراد ما دامت مبعثرة ـ لأجل هذا تواصى أعداء الإسلام ـ القدامى منهم والمعاصرون ـ على ضرورة القضاء التام على أيّ شكل من أشكال الوحدة في العالم الإسلامي، وهم يعلنون ذلك دائماً ويخططون له دون خفاء أو استحياء. وقد أدّت جهودهم في هذا المجال إلى نتائجها المرة، فأضحى العالم الإسلامي دويلات ممزقة تزيد على الخمسين في العدد، لكنها ـ من حيث القيمة والتأثير ـ غثاء كغثاء السيل، لا يربط بينها سوى المجاملات والعلاقات الدولية والتي تستوي فيها دولة مسلمة مع أخرى غير مسلمة سواء بسواء، وأحيانا تكون الدولة الإسلامية علاقتها مع الدول غير الإسلامية أوطد وأوثق من علاقاتها مع الدول الإسلامية.

ولم يكتف العدو بهذا التقسيم بل بدأ في تقسيم المقسم وتجزئة المجزأ فهذا السودان قد قسم، والفتن داخل كل بلد إسلامي مستعرة بين طوائفها أو أجزائها، ولن تفلت بلد من البلاد الإسلامية ـ من هذا التقسيم ـ ما لم تأخذ حذرها. ومن المؤسف أن داء الفرقة لم يقتصر على السياسيين وعوام الناس[٢٠] بل امتد إلى صفوف العاملين والداعين للإسلام، فبدلا من تعاون هؤلاء العاملين في هذه الظروف الصعبة التي تكالبت فيها الدنيا بأسرها على الإسلام والمسلمين، راح كل فريق يلمز الآخر، ويدعي أن ما لديه صواب لا يحتمل الخطأ، وأن ما لدى غيره خطأ لا يحتمل الصواب[٢١].

ولئن كان ـ منطقيا ـ وجود أعداء يحاربون الإسلام ويكرهونه من غير المسلمين، فإن مصيبة المصائب أن يعادي المسلمون بعضهم بعضا، ويتحول بأسهم بينهم بدلا من أن يكون على أعدائهم.

ب ـ من عوامل الانتصار: الوحدة والاعتصام:

إذا كان التفرق والتنازع من عوامل الانكسار، فإن الاعتصام والوحدة من أهم عوامل الانتصار، قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[٢٢] وحبل الله هو القرآن، وقيل: حبل الله هو الإسلام، والمختار أن المراد بحبل الله هو

٢٠- منذ أن قسمنا المحتلون إلى: مسلم سعودي ومسلم سوري ومسلم مصري ومسلم كويتي ومسلم تركي واندونيسي وهندي، ونحن في أضعف حالاتنا وسهل لهم السيطرة علينا، فمتى نرجع إلى ديننا ونكون مسلمين بحق عاملين بكتابنا الذي أنزله الله علينا؟ لا نحارب على شهوات، ولا نتصارع على مصالح دنيوية زائلة متقبلة لأن المصالح الدنيوية تتغير كل وقت وحين.

٢١- طلعت محمد عفيفي، **المسلمون وداء الفرقة**، ص ٦.

٢٢- سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

كتابه، ومن اعتصم به كان آخذاً بالإسلام، وهذا يوجب علينا أن نجعل اجتماعنا ووحدتنا بكتابه، عليه نجتمع، وبه نتحد، لا بجنسيات نتبعها، ولا بمذاهب نبتدعها، ولا بمواصفات نضعها، ولا بسياسات نخترعها. ولا شك أن الأمر بالاعتصام بحبل الله الذي قررته الآية، إنما هو اعتصام بين إخوة، فالأخوة في الإسلام حقيقة واقعة ثابتة. ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ وهذه الأخوة تقتضي التناصر والتضامن في جميع شؤون الحياة بمقتضى الإيمان، فهذه الأخوة الصادقة تجعل المسلم يدافع عن أخيه المسلم ولا يتركه للكافر ينفرد به ويتسلط عليه. كما أن من ثمرة الأخوة في الإسلام المحبة، قال صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"(٢٣) ونعلم أيضاً أن الأخوة تقتضي التعاون على البر والتقوى، ومجانبة الإثم والعدوان.

ثم نهانا عن التفرق بعد الاعتصام والاجتماع، لما في التفرق من زوال الوحدة التي هي معقد العزة والقوة، وبالعزة يعتز الحق فيعلو في العالمين، وبالقوة يحفظ هو وأهله من هجمات الواثبين وكيد الكائدين. قال تعالى :﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(٢٤) أما عذاب الدنيا فهو أن المتفرقين المختلفين الذين اتبعوا أهواءهم، وحكموا في دينهم آراءهم يكون بأسهم بينهم شديد، فيشقى بعضهم ببعض ثم يبتلون بالأمم الطامعة في الضعفاء فتذيقهم الخزي والنكال، وتسلبهم عزة الاستقلال، وأما عذاب الآخرة فقد بيّن الله في كتابه أنه أشدّ من عذاب الدنيا وأبقى(٢٥).

أما المتفقون الذين جمعوا عزائمهم وإرادتهم على العمل بما فيه مصلحة أمتهم وملتهم، واعتصموا واتفقوا على الأعمال النافعة التي فيها عزتهم وشرفهم، وأصبح كل واحد منهم عونا للآخر ووليّاً له، فأولئك تبيض وجوههم ـ أي تنبسط وتتلألأ بهجة وسروراً ـ عند ظهور أثر الاتفاق والاعتصام ونتائجهما، وهي السلطة والعز والشرف، وارتفاع المكانة وسعة السلطان، وهذا الأثر ظاهر في الأمم المتفقة المتحدة التي يتألم مجموعها إذا أُهين واحد منها في قطر من أقطار الأرض بعيد أو قريب، وتجيش جميعها مطالبة بنصره والانتقام له، لأنه ظلم وأهين، ولا يصح عندها أن يكون منها ثم يظلم أو يهان وتكون هي راضية ناعمة البال، أولئك الأقوام ترى على وجوههم لألاء العزة، وتألق البشر بالشرف والرفعة.

وأما المختلفون لافتراقهم في المقاصد، وتباينهم في المذاهب والمشارب، الذين لا يتناصرون

٢٣- **صحيح البخاري**، كتاب الإيمان، ج ١، ص ٢١.

٢٤- سورة آل عمران، الآية: ١٠٥.

٢٥- **تفسير المنار**، ج ٢، ص ٤٢.

ولا يتعاضدون، ولا يهتم أفرادهم بالمصلحة العامة التي فيها شرف الملة وعزة الأمة، فهم الذين تسود وجوههم بالذلة والكآبة يوم تظهر عاقبة تفرقهم واختلافهم بقهر الأجنبي لهم ونزعه السلطة من أيديهم.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ فيقال لهم: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[٢٦] يقول الشيخ محمد عبده: يقال لهم هذا القول في الدنيا وفي الآخرة، أما في الدنيا فلا بد أن يوجد في الناس من يقول للأمة التي وقع لها ذلك مثل هذا القول تغليظا عليها؛ لأن عملها لا يصدر إلا من الكافرين، وأما في الآخرة فيوبخهم الله بمثل هذا السؤال.

ويقول محمد رشيد رضا: "يجوز أن يكون المراد بيان الشأن لا الحكاية عن قول لساني وقع بالفعل، والمعنى أن شأنهم حينئذ أن يقال فيهم أو لهم ذلك القول، بل هذا هو المتعين عندي، والكلام في الأمم لا في الأفراد، والكفر في عرف القرآن ليس خاصا بما يعده الفقهاء والمتكلمون كفراً، حيث جعلوا الكفر هو جحد المجمع عليه من الدين بالضرورة، أوكل ما اعتقده المكلف من الدين ثم كذبه.

ولكن القرآن يعد الخروج من مقاصد الدين الحقيقية بالعمل من الكفر ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٢٧] فإذا كان الظالمون كافرين في عرفه، فكيف لا يكون المتفرقون المختلفون كافرين؟ والاعتصام بالوحدة وترك التفرق والاختلاف من أعظم شعبه، بل ذلك هو أساسه الذي لا يثبت بناؤه إلا عليه، ولذلك وردت هذه الآيات التي نحن بصدد تفسيرها عقب قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ فإن ما قررته من وجوب الاعتصام والنهي عن التفرق أولاً وآخراً، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأمة قوية متحدة هو بيان السبيل التي يجب علينا سلوكها لنموت مسلمين"[٢٨].

إن القوى المعادية للإسلام شديدة البأس شديدة البطش بيد أنها يستحيل أن تغلبنا إذا توحدت كلمتنا على كلمة التوحيد، وتضامت صفوفنا على إعلاء كلمة الله... ما من معركة هزمنا فيها على امتداد التاريخ إلا كنا نحن سبب الخذلان، وكان تفريقنا وتفرطنا الثغرة التي نفذ منها العدو فاستباح بيضتنا وسود وجوهنا. إن أمل أعداء الإسلام أن يفكوا وحدة الأمة، وأن يحيلوا الجماعة أفرادا وشعوبا صغيرة لكل منهم شأن يغنيه، فإذا صارت الأمة كذلك، اقتيد كل فرد وجماعة صغيرة إلى مصرعه كما يذبح النعاج. إن الجماعة من شعائر الإسلام ويجب أن يحرص المسلمون على جماعتهم وأن يقاوموا كل أسباب الفرقة والاعتزال.

٢٦- سورة آل عمران، الآية: ١٠٦.

٢٧- سورة البقرة، الآية: ٢٥٤.

٢٨- تفسير المنار، ج ٢، ص ٤٤ وما بعدها.

إن الجهاد عمل جماعي تحمل الأمة كلها أعباءه، وتشرف الدولة على تنظيمه، ويستحيل أن يكون عبادة فردية منعزلة!! الجهاد جيوش تحشد، وصفوف تعبأ، وقوى تتساند، وأسلحة تنسق وتمضى إلى غايتها وفق خطط مدروسة[٢٩]. إن العمل على توحيد الصفوف هو أساس الانتصار في الحروب، ورمز للغلبة على العدو، قال المالقي: "أول الظفر الاجتماع، وأول الخذلان الافتراق، أقلوا الخلاف على الأمراء، فلا ظفر مع الاختلاف، ولا جماعة لمن اختلف عليه، وحكى عن الحكماء: كدر الجماعة خير من صفو الفرقة، واجتماع الضعيفين قوة تدفع عنهما، وافتراق القويين ضعف يمكِّن منهما"[٣٠]. جاء في **البداية والنهاية** لابن كثير: "لما رأى ملك الروم اشتغال معاوية بحرب علي، تدانى إلى بعض البلاد في جنود عظيمة وطمع فيها، فكتب معاوية إليه: والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك يا لعين لأصطلحن أنا وابن عمي عليك، ولأخرجنك من جميع بلادك، ولأضيقن عليك الأرض بما رحبت، فعند ذلك خاف ملك الروم وانكف، وبعث يطلب الهدنة"[٣١].

متى نكون مثل هؤلاء ونتحد مع بعضنا على عدونا، ولا نتحد مع عدونا على إخواننا؟ متى نطيع ربنا ونتحد ونتعاون؟ متى لا نعصي الله ولا نتفرق ولا نتقاتل؟! في أيامنا نرى الجامعة العربية ـ وكذا منظمة المؤتمر الإسلامي ـ لا تكاد دولها تجمع على رأي، مع أن أهل الغرب ـ رغم اختلاف دياناتهم وأجناسهم ولغاتهم ومصالحهم ـ وهم ليسوا مسلمين قد عقلوا وفهموا بعد تجارب السنين الطوال وبعد الحروب والعداوات والثارات أدركوا في النهاية أن الصداقة بين دولهم واتحادهم أجدى وأعون على القوة والخير، إن الجماعة الأوروبية جماعة ناجحة تتعاون دولها على ما فيه خيرها جميعا، بل إن دول الجماعة الأوروبية أصبحت وحدة سياسية واقتصادية قائمة بذاتها تحمي بلادها واقتصادها من ضغط الدول الأخرى حتى ولو كانت صديقة مثل أمريكا.

ورغم اتحاد الغرب اقتصاديا وسياسيا وعسكريا وتعاونهم فيما بينهم بما يحقق مصالحهم، إلا أنهم يعملون برئاسة أمريكا على القضاء على وحدة المسلمين، يقول المبشر لورانس براون: "إذا اتحد المسلمون أمكنوا أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرا... أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير..."

٢٩- محمد الغزالي، **المحاور الخمسة للقرآن الكريم**، دار الشرق، ص ٢٠١.

٣٠- المالقي، **الشهب اللامعة في السياسة النافعة**، الباب الثالث والعشرون في سياسة الحروب، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٢٤٢-٢٤٣.

٣١- ابن كثير، **البداية والنهاية**، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨م، ج ٣، ص ١١٩.

ثم يقول: "يجب أن يبقى العرب والمسلمون متفرقين ليبقوا بلا قوة ولا تأثير"(٣٢).

ومن العجيب أنهم يعملون بما نصحنا به علماؤنا أن نفعله مع أعدائنا حيث أمرونا بالعمل على بثّ الخلاف والفرقة بين صفوف الأعداء، حيث ينبغي على الأمير أن يبث الخلاف في صفوف العدو وأن يحاول تفريق جمعهم، قال المالقي: "قال أرباب السياسات: ليكن السلطان لفريق من أعدائه صاحبا ومداهنا، ليعرف منه أخبار بقيتهم، ويهدم به اتفاق جمعهم، ويتسبب به إلى خلافهم وتشتت رأيهم"(٣٣).

وما يقال عن الدول الإسلامية في تفرقها واتحادها، يقال أيضاً عن الدولة الإسلامية الواحدة في تفرقها واتحادها كذلك. أيها المسلمون إن مصلحتكم في الدنيا والآخرة في اتحادكم، كما أن ضرركم وزوال ملككم في تفرقكم وتقاتلكم، فمتى نعقل كما عقلت أوروبا ونتحد كما اتحدوا ونتعاون كما تعاونوا؟ عجبا إنهم يجتمعون على باطلهم ونحن لا نجتمع حتى على حقوقنا!! أيها المسلمون كونوا مثل سحرة فرعون، قبل إيمانهم كانت الدنيا همهم وبعد إيمانهم قالوا لفرعون: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾(٣٤)، فهل نستطيع أن نقولها لمن يأمروننا بمساعدتهم في عدوانهم على إخواننا؟!!

وإذا ما عرفنا السبب في تخلفنا أمكننا علاجه، وهنا يتوجب السؤال لماذا توحدوا وتفرقنا؟ والجواب: يراه البعض بأن العوامل المؤدية إلى الفرقة من خارج المسلمين هي الشيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ﴾(٣٥). وأعوان الشيطان خاصة من الغربيين وأعداء الإسلام على اختلاف مذاهبهم ومللهم، وعمل الأعداء على تفرقتنا وتمزيق وحدتنا مما لا يخفى على أحد، كما يذكر الأسباب الداخلية ومردها إلى الجهل واتباع الهوى(٣٦). وفي الحقيقة من الصعب حصر كل عوامل نكستنا وتفرقنا، وعوامل وحدتهم ونهضتهم، غير أننا نحاول أن نذكر أهم هذه العوامل قدر استطاعتنا.

يرى البعض أننا تفرقنا لأن نظمنا ليست على مستوى تطلعات شعوبنا ولأن نظمنا يشرف عليها الجهلاء الذين تخرجوا من رحم العسكريتاريا، وترعرعوا على فقه الصفعة بدل فقه المنفعة. تفرقنا لأن دولنا تحولت إلى شركات يشرف عليها الرئيس وزوجته وبنوه وأقرباؤه وأبناء خالاته وعماته وعشيرته،

٣٢- عبد الحي الفرماوي، **حرب الخليج الأولى في ميزان الإسلام**، دار النشر والتوزيع الإسلامية، ص ٢٥.

٣٣- **الشهب اللامعة في السياسة النافعة**، ص ٢٥١.

٣٤- سورة طه، الآية: ٧٢.

٣٥- سورة المائدة، الآية: ٩١.

٣٦- طلعت محمد عفيفي، **المسلمون وداء الفرقة**، ص ٣٣-٦٥.

وهؤلاء إذا رسموا الإستراتيجية ـ إذا كانوا يعرفون معنى الإستراتيجية ـ فلنفع الأقلية المتسلطة لا الأغلبية المستضعفة، وإذا خططوا فلكي يزدادوا ثراءً على حساب شعوبهم. تفرقنا لأن الذي حكمنا منذ أربعين سنة أو ثلاثين سنة مازال يحكمنا برؤاه التقليدية[٣٧] القديمة البعيدة كل البعد عن الواقع، وهذا الذي يحكمنا اختزل العبقرية فيه، وأفعاله وقراراته الصواب كل الصواب، والحكمة التي ما بعدها الحكمة. تفرقنا لأن نظمنا مريضة، وإذا كان الرأس مريضاً متسرطنا فماذا عساه أن يكون التخطيط الصادر عنه؟ تفرقنا لأن الإرادات الدولية التي أوصلت حكامنا إلى دوائر القرار حرضت هذا الحاكم ضد الآخر وهكذا، حتى صارت الفرقة بالنسبة لحكامنا هي سيدة الموقف. تفرقنا لأن شعوبنا مغيبة عن صنع القرار، فهي شعوب لا تملك أن تقرر في أية صغيرة ولا كبيرة، وهذا ينطبق أيضاً على برلماناتنا.

تقدموا لأنهم تعلموا من ماضيهم، أخذوا من ماضيهم المحاسن وتركوا المساوئ، ونحن أخذنا من ماضينا المساوئ وتركنا المحاسن، فنحن كرسنا المذهبيات والطائفيات والجهويات والتي قد انصهرت في الإسلام، ولكننا وبتخطيط من الغرب أحييناها لتنهش في جسد الأمة[٣٨]. تقدموا لأنهم قدسوا الإنسان والحيوان على السواء، وأوجدوا خططاً منسجمة مع قدسية هذا الإنسان، أما عندنا فقزمنا الإنسان وتعاملنا معه على أنه حشرة، ألم يقل حاكم عربي لشعبه من أنتم؟ أيها الجرذان!!

لكل ما سبق نحن تفرقنا وهم اتحدوا، هم تقدموا ونحن تأخرنا.

العامل الثاني: أ ـ من عوامل الانكسار: الظلم:

يعد الظلم عاملاً هاماً وعاماً من عوامل الهزيمة والانكسار خاصة وأنه يتداخل مع عوامل أخرى مثل الإفساد في الأرض والمعاصي، وسيأتي الحديث عنها تفصيلا إن شاء الله. والظلم في اللغة: الإعراض عن العدل، ولذلك حد بأنه: وضع الشيء في غير موضعه المخصوص به[٣٩]. وفي الاصطلاح: عبارة عن التعدي عن الحق إلى الباطل، وهو الجور، وقيل: هو التصرف في ملك الغير ومجاوزة الحد[٤٠]. وعرف الظلم أيضاً بأنه: وضع الشيء في غير موضعه المختص به، إما بنقصان أو بزيادة أو بعدول عن وقته

٣٧- أعجبني شاب في ثورة ٢٥ يناير عندما قال عن الرئيس المخلوع حسني مبارك: "إنه يحكمنا بعقلية ١٩٨٠م".

٣٨- يحي أبو زكريا، **الغارة الأمريكية الكبرى على العالم الإسلامي**، نُشر إليكترونياً عام ٢٠٠٣م، انظر: www.hashimi.net ، ص ٥٤-٥٥.

٣٩- الراغب الأصفهاني، **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، مكتبة الكليات الأزهرية، ص ٣٥٧.

٤٠- الجرجاني، **التعريفات**، مطبعة الحلبي، ص ١٢٥.

ومكانه[٤١]. وقد نهى الله عن الظلم وشدد النكير عليه، وتوعد الظالمين ومن يسندونهم بالعذاب الأليم، وحضّ على مقاومتهم، قال تعالى: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾[٤٢] وقال تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[٤٣] والظلم سبب مؤكد للعذاب، قال تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾[٤٤]. وقد أدان النبي صلى الله عليه وسلم أعوان الظالمين فقال: "من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإسلام[٤٥]. وحذر النبي صلى الله عليه وسلم من التقاعس عن مقاومة الظالم فقال صلى الله عليه وسلم: "إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعذاب منه"[٤٦]. كما أن الظالم لا بد وأن يلقى جزاء ظلمه، قال صلى الله عليه وسلم: "إن الله ليملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته"[٤٧]. ولضرر الظلم وخطره حرم الحق تبارك وتعالى الظلم، وأخبر في كتابه أنه لا يظلم ولا يريد الظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[٤٨] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾[٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾[٥٠].

أما عن أنواع الظلم كما وردت في القرآن فهي عديدة منها:

١- ظلم الناس عموما: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾[٥١].

٢- ظلم القرون: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[٥٢] فالإهلاك في الآية، ترتب على الظلم، ومن أنواع

٤١- محمد ربيع الجوهري، **أخلاقنا**، دار الفجر الإسلامية، المدينة المنورة، ط ٤، ص ٢٠٧.

٤٢- سورة الفرقان، الآية: ١٩.

٤٣- سورة غافر، الآية: ١٨.

٤٤- سورة البقرة، الآية: ٥٩.

٤٥- الطبراني، **المعجم الكبير**، طبعة دار الفكر، ج ١، ص ٢٢٧، برقم ٦١٩.

٤٦- **سنن أبي داود**، كتاب الملاحم، ج ٤، ص ١٢١، برقم ٤٣٤١.

٤٧- **صحيح مسلم**، كتاب البر، باب تحريم الظلم، المكتب الفني التجاري، ج ٤، ص ١٩٩٤، برقم ٢٥٧٧.

٤٨- سورة النساء، الآية: ٤٠.

٤٩- سورة يونس، الآية: ٤٤.

٥٠- سورة غافر، الآية: ٣١.

٥١- سورة النحل، الآية: ٦١.

٥٢- سورة يونس، الآية: ١٣.

الإهلاك الهزيمة أمام الأعداء حيث تدمر المساكن وتتلف المزارع وتهدم المصانع.

٣- ظلم القرى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾(٥٣).

٤- ظلم الإنسان لغيره: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾(٥٤).

٥- ظلم الإنسان لنفسه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(٥٥).

مقتضيات الظلم ودواعيه كما جاءت في القرآن:

١- الكفر: قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(٥٦).

٢- الشرك: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(٥٧).

٣- تعدي حدود الله: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(٥٨).

٤- جحود آيات الله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾(٥٩)، ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(٦٠)، ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾(٦١).

٥- تكذيب آيات الله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾(٦٢).

٦- الفسق: ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾(٦٣).

٧- عدم الحكم بما أنزل الله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(٦٤).

٥٣- سورة الكهف، الآية: ٥٩.

٥٤- الشورى، الآية: ٤٢.

٥٥- سورة يونس، الآية: ٤٤.

٥٦- سورة البقرة، الآية: ٢٥٤.

٥٧- سورة لقمان، الآية: ١٣.

٥٨- سورة البقرة، الآية: ٢٢٩.

٥٩- سورة الأنعام، الآية: ٣٣.

٦٠- سورة العنكبوت، الآية: ٤٩.

٦١- سورة النمل، الآية: ١٤.

٦٢- سورة يونس، الآية: ١٧.

٦٣- سورة الأعراف، الآية: ١٦٥.

٦٤- سورة المائدة، الآية: ٤٥.

٨- مخالفة أمر الله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(٦٥) وقوله: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(٦٦).

٩- سؤال ما ليس بحق الطمع: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾(٦٧).

١٠- تخريب بيوت الله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾(٦٨).

١١- كتمان الشهادة: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(٦٩).

وصور الظلم في عالمنا المعاصر خاصة في بلادنا العربية والإسلامية كثيرة وعديدة لعل من أهمها عدم تولي الأصلح والعدول عنه إلى غيره ـ أقل منه كفاءة ـ لقرابة أو موافقة له في مذهب أو بلد وما إلى ذلك من صور عدم تولي الأصلح. وإذا تولى غير الأصلح فإن المؤسسة التي يرأسها تنهار ولا تتقدم خاصة إذا كانت مؤسسة عسكرية ويكون مصيرها الهزيمة أمام العدو، وهذا مشاهد ومجرب، كما أن من يكثر ظلمه لا يكتب له النجاح ولا النصر، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(٧٠) فالله لا يهديهم في أعمالهم ولا يهديهم للنصر والتوفيق، لأن النصر من عند الله وحده ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾(٧١). يقول ابن تيمية: "إن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة، وعاقبة العدل كريمة، ولهذا يروى: أن الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة ولو كانت مؤمنة"(٧٢)؛ لأن الدنيا تسير بالكفر مع العدل ولا تسير بالإسلام مع الظلم.

ويتحدث الدلجي عن أثر الظلم في تمني زوال الدولة التي يعيش فيها المظلوم، حيث يقول: "متى استولت الفلاكة ـ الفقر والحاجة ـ على شخص في بلد واضطرب في أرجائها وتلكع في طرق معاشها، وذاق طبائع أهلها وراز شهامتهم وعصبيتهم وارتياحهم إلى المحامد وأريحيتهم، وامتحن قوته في

٦٥- سورة البقرة، الآية: ٣٥.

٦٦- سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.

٦٧- سورة ص، الآية: ٢٤.

٦٨- سورة البقرة، الآية: ١١٤.

٦٩- سورة البقرة، الآية: ١٤٠.

٧٠- سورة البقرة، الآية: ٢٥٨.

٧١- سورة آل عمران، الآية: ١٢٦.

٧٢- ابن تيمية، **الحسبة**، المكتبة العلمية، ص ١٢.

التسلق إلى مطالبه وأبت تلك الدولة عليه إلا نبوا ودفعا وممانعة عن المطلوب، فحينئذ يظن أو يعلم أن تأتي المصلحة في ذلك البلد مستحيل أو متعسر، والبلد الثاني ظن الخير قائم به لاسيما فيمن يتوهم في نفسه استعداداً لإفاضة الخير عليه، فيجب حينئذ السفر إلى البلد الثاني، والأقيسة العقلية وإن اقتضت استمرار الفلاكة في البلد الثاني من جهة أن موجبات الفلاكة القائمة بالمفلوك مصاحبة له سفرا وحضرا، وكذلك موجبات فلاكته القائمة بالناس موجودة فيهم في كل بلد لكن الأدلة متعارضة في البلد الثاني، والعلم المستفاد بالتجربة في البلد الأول مفقود في البلد الثاني... فليس الشر الحاصل المحسوس كالشر المرتقب المعقول، وإن كانا معلومين، ولذلك من قصده شخص بسيف مصلتا يريد قتله وهو على سطح عال يرمي بنفسه منه إلى الأرض وإن كان ذلك أحد الطريقين في هلاكه، وربما صار السفر للمفلوك طبيعيا لكثرة ما يعاني من الشدائد والمشاق، كمن وقع في ماء أو نار فإنه بطبعه يأخذ إلى محيط النار وساحل الماء... وإذا اتضح عندك ما قررناه وقعت على الحكمة في تمني المفلوكين تغير الدول، وتشوفهم إلى ذلك، فإن الدولة الحاضرة كالبلد الأول، والدولة المتمناة كالبلد الثاني، وقوة الرجاء وقيام احتمال الخير المتعلق بالدولة الثانية حكمه حكم البلد الثاني. وقد أشار إلى ذلك من قال:

إذا لم يكن للمرء في دولة امرئ نصيب من الدنيا تمنى زوالها"[٧٣]

ولعل القارئ يذكر ويشاهد ما جرى للحكام الطغاة الذين ظلموا شعوبهم وأذاقوهم الهوان أمثال حاكم رومانيا، وابن علي حاكم تونس، وحسني مبارك حاكم مصر، والقذافي حاكم ليبيا، وما يحدث في سوريا واليمن، وما جرى لهم على أيدي شعوبهم[٧٤] لكنه الظلم وعواقبه فهل يعتبر الظلمة، أم هم في غيهم سادرون؟!!!

وليس شيء أسرع في خراب الأرض ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور، لأنه ليس يقف على حد، ولا ينتهي إلى غاية، ولكل جزء منه قسط من الفساد حتى يستكمل، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد"[٧٥] وقال صلى الله عليه وسلم: "ثلاث منجيات وثلاث مهلكات، ومن الثلاث المنجيات: العدل في الغضب والرضا"[٧٦] تنجي في حال الكرب وعند الحرب ويوم الحشر.

٧٣- أحمد بن علي الدلجي، **الفلاكة والمفلكون**، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، ص ٢٢.

٧٤- للباحث كتاب سيصدر قريبا إن شاء الله عن ثورات الربيع العربي، دروس وعبر.

٧٥- لم أقف على تخريجه في كتب الحديث التي بين يدي وهو من قول الإمام علي رضي الله عنه (**نهج البلاغة**، الحكمة: ٢١٨).

٧٦- الطبراني، **المعجم الوسيط**، طبعة المعارف، الرياض، ج ٥، ص ٣٢٨ ، وإسناده حسن.

وقد عقد ابن خلدون فصلا في **مقدمته** الشهيرة بيّن فيه أن الظلم مؤذن بخراب العمران إلى أن وصل إلى النتيجة التي ذكرناها وهي هزيمة البلد التي يكثر فيها الظلم، حيث يقول: "اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها، انقبضت أيديهم عن السعي في الاكتساب، فإذا كان الاعتداء كثيرا عاما في جميع أبواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك لذهابه بالآمال جملة بدخوله من جميع أبوابها، وإن كان الاعتداء يسيراً كان الانقباض عن الكسب على نسبته، والعمران ووفوره ونفاق أسواقه إنما هو بالأعمال وسعي الناس على المعاش في المصالح والمكاسب ذاهبين وجائين، فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران وانتقصت الأموال، وابذعر(٧٧) الناس في الآفاق من غير تلك الإيالة(٧٨) في طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها فخف ساكن القطر، وخلت دياره، وخربت أمصاره، واختل باختلاله حال الدولة والسلطان، كما أن صورة العمران تفسد بفساد مادتها..." إلى أن يقول: "والمراد من هذا أن حصول النقص في العمران عن الظلم والعدوان أمر واقع لا بد منه لما قدمناه، ووباله عائد على الدولة"، ويتبع ذلك بشرح أنواع الظلم فيقول: "ولا تحسبن الظلم إنما هو أخذ المال أو الملك من يد مالكه من غير عوض ولا سبب كما هو المشهور، بل الظلم أعم من ذلك، فكل من أخذ ملك أحد أو غصبه في عمله أو طالبه بغير حق أو فرض عليه حقا لم يفرضه الشرع فقد ظلمه، فجباة الأموال بغير حقها ظلمة، والمعتدون عليها ظلمة، والمنتهبون لها ظلمة، والمانعون لحقوق الناس ظلمة، ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران الذي هو مادتها لإذهابه الآمال من أهله، واعلم أن هذه هي الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم، وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه، وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشري وهي الحكمة العامة المراعية للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة من حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال". كما ذكر ابن خلدون فصلاً كاملاً أوضح فيه أن أشد الظلامات وأعظمها في فساد العمران تكليف الأعمال وتسخير الرعية بغير حق.

ثم يتحدث عن بعض أنواع الظلم إلى أن يصل إلى النتيجة التي ذكرناها وهي الهزيمة من العدو، فيقول: "وأعظم من ذلك في الظلم وإفساد العمران والدولة التسلط على أموال الناس بشراء ما بأيديهم

٧٧- ابذعر الخيل: ركضت تبادر شيئاً تطلبه، وابذعر القوم: تفرقوا واختلفوا، الخليل الفراهيدي، **العين**، طبعة دار الهلال، ج ٢، ص ١٠٣.

٧٨- الإيالة: قطعة من أرض الدولة يحكمها وال من قبل السلطان، الأزهري الهروي، **تهذيب اللغة**، دار إحياء التراث العربي، ج ١٥، ص ٣١٤.

بأبخس الأثمان ثم فرض البضائع عليهم بأرفع الأثمان على وجه الغصب، وكذلك فرض المكوس على البياعات(٧٩) ... والعدوان على الناس في أموالهم وحرمهم ودمائهم وأسرارهم وأعراضهم فهو يفضي إلى الخلل والفساد دفعة وتنتقص الدولة سريعا..." إلى أن يقول: "اعلم أن الداعي لذلك كله إنما هو حاجة الدولة والسلطان إلى الإكثار من المال بما يعرض لهم من الترف في الأحوال فتكثر نفقاتهم ويعظم الخرج ولا يفي به الدخل على القوانين المعتادة، فيستحدثون ألقابا ووجوها يوسعون بها الجباية ليفي لهم الدخل بالخرج، ثم لا يزال الترف يزيد والخرج بسببه يكثر والحاجة إلى الأموال تشتد ونطاق الدولة بذلك يزيد إلى أن تمحي دائرتها ويغلبها طالبها والله أعلم"(٨٠).

ب ـ من عوامل الانتصار: العدل

وإذا كان الظلم من أسباب الهزيمة والانكسار فإن العدل من أسباب العزة والانتصار(٨١).

٧٩- المكوس على البياعات ما تسمى في زماننا بضريبة المبيعات خاصة إذا كانت فاحشة مرتفعة لأنها يتحمل عبئها الفقراء أكثر من الأغنياء.

٨٠- **مقدمة ابن خلدون**، دار القلم، ص ٢٨٦- ٢٩٠.

٨١- ونحن نتكلم عن العدل نورد القصة الشهيرة وهي قصة براءة الكاتب المصري الدكتور سعد الدين إبراهيم الذي يحمل الجنسية الأمريكية، حيث كان القضاء المصري في وقت سابق قد قدم كل ما لديه من أدلة وبراهين تثبت تهما معينة ضد سعد الدين إبراهيم، وعندما تحركت الإدارة الأمريكية للضغط في سبيل إطلاق سراحه، صرح الرئيس المخلوع حسني مبارك: أن المسألة بيد القضاء، والقضاء في مصر مستقل!! وفجأة وبدون سابق إنذار أطلق سراح سعد الدين إبراهيم وأعلن القضاء المصري أنه بريء من التهم المنسوبة إليه، فهل كان القضاء المصري سينهج هذا النهج لو كان سعد الدين إبراهيم مواطنا مصريا عاديا لا يحمل جنسية دولة تصفع حكامنا صباحا ومساء، وتقودهم كما تقاد عرائس الاراجوز؟ هل كان سعد الدين إبراهيم سيغادر السجن لو كان مصريا بسيطا لا إمبراطورية تحميه؟! إن الجنسية الغربية أصبحت ضمانة للمواطن العربي، حتى يعيش عزيزاً في وطنه العربي الأم، فإذا ما اعترضه رجال المباحث الأشاوس يطلب سفير دولته الجديدة، وتكفي دقائق معدودات لتتحرك دبلوماسية هذه الدولة الغربية للذود عن مواطنها الأصل أو المسلم الأصل. ماذا لو عدل حكامنا وتخلوا عن طيشهم ورعونتهم وجبروتهم؟ ماذا لو أمروا رجال أمنهم بالكف عن البطش والكف عن مواطنيهم؟ ماذا لو طالبوا بمواطنيهم المعتقلين في سجون أوربا وأمريكا، كما يفعلون هم برعايا دولهم؟ أين نحن مما قاله الحق تبارك وتعالى في قرآننا ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ (سورة الإسراء، الآية: ٧٠) فلا يشتم ولا يضرب ولا يهان ولا ينتقص من حقوقه شيئاً أيا كان دينه أو مستواه الاقتصادي أو الاجتماعي، ما دام لم يخالف القانون ولم يرتكب جرما معاقبا عليه بنص القانون. إن تطبيق هذه الآية في الغرب وليس عندنا، في بلادهم وليس في بلادنا مع مواطنيهم وليس مع مواطنينا، لذلك هم اتحدوا ونحن تفرقنا، هم سادوا وعزوا ونحن انهزمنا وذللنا. إن نصرنا مع حالتنا التي نحن عليها نقضا لقانون الله وسنة الكون والحياة ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا. قال الشاعر إيليا أبو ماضي:

وهل إن كان حاضرنا شقيا نسود بكون ماضينا سعيدا

فلا بد لكي ننتصر أن نتغير، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (سورة الرعد، الآية: ١١)

معنى العدل: عرّف الراغب الأصفهاني العدل بأن هذا اللفظ يقتضي المساواة، فلا يستعمل إلا باعتبار الإضافة، وهو في التعاريف إذا اعتبر بالقوة هيئة في الإنسان يطلب بها المساواة، وإذا اعتبر بالفعل فهو القسط القائم على المساواة(٨٢). عرف الشهرستاني العدل بأنه: "وضع الشيء موضعه وهو التصرف في الملك على مقتضى المشيئة والعلم، والظلم بضده"(٨٣). وذكر ابن تيمية العدل بأنه: "تحقيق الأمور على ما هي عليه وتكميلها، وذلك كالتسوية بين الشيئين المتماثلين، والتفرقة بين المختلفين"(٨٤).

ومن هذه التعريفات يتبين أن العدل هو احترام حقوق الناس وإعطاء كل ذي حق حقه، وأن ينال كل إنسان ثمار عمله ويتحمل تبعة فعله. ويتبين منها أيضاً أنها توحي بأن العدل يقتضي التساوي، حتى عرف بعضهم العدل بأنه التساوي، لكن تعريف ابن تيمية يبين أن هذه المساواة التي يقتضيها العدل ليست المساواة المطلقة، ولكنها المساواة بين المتساويين في الجهد والإمكانيات، فالعدل مساواة المتساويين، كالعدل بين الإخوة في الميراث، والمساواة بين المجاهدين الذين أبلوا بلاء حسنا في الغنائم(٨٥)، وهناك أمور يجب المساواة فيها، ومنها المساواة أمام القانون، والمساواة في الحقوق، ولكن المساواة بين المجاهدين والقاعدين عن الجهاد لا تكون عدلاً، بل تكون ظلماً، لذلك قال تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾(٨٦).

ولأهمية العدل أمر الله به رسوله، قال على لسان نبيه: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾(٨٧) وأوجب العدل في الحكم والقضاء، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾(٨٨) وأوجبه في كتابة الدين: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾(٨٩) وأوجبه في الصلح: ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟﴾(٩٠) وأوجبه بين الزوجات: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾(٩١). إن عدل الحاكم أو ولي الأمر، فيما

٨٢- **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، ص ١٨٣.

٨٣- الشهرستاني، **الملل والنحل**، مكتبة السلام، ج ١، ص ٤٩.

٨٤- ابن تيمية، **الرد على المنطقيين**، طبعة لاهور، باكستان، ص ٤٣٦.

٨٥- جمال سعد محمد، **دراسات في علم الأخلاق**، ص ٣٦١-٣٧٨.

٨٦- سورة النساء، الآية: ٩٥.

٨٧- سورة الشورى، الآية: ١٥.

٨٨- سورة النساء، الآية: ٥٨.

٨٩- سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.

٩٠- سورة الحجرات، الآية: ٩.

٩١- سورة النساء، الآية: ٣.

يتعلق بها للناس من حقوق في أموالهم أو حقوق مترتبة على أعمالهم، هو الذي يترتب عليه شعور الرعية بالاطمئنان، ويحفزهم على الإقبال على العمل، والجد فيه، فينتج عن ذلك نماء العمران واتساعه، وتوجد الأموال وتكثر الخيرات، والمال والعمل يؤديان إلى تقوية الدولة، وبقاء الحكم واستمراره. وبالعكس تكون عواقب الاعتداء على أموال الناس وحقوقهم أو غمطهم إياها، إحجام الناس عن مزاولة الأعمال وركود النشاط، لفقدهم شعور الثقة، ويؤدي ذلك إلى الكساد الاقتصادي، فيتدهور العمران وتضعف الدولة أو تفنى(٩٢). كما ذكر ابن خلدون من قبل.

قال الشيزري: "اعلم أن العدل أشرف أوصاف الملك، وأقوم لدولته، لأنه يبعث على الطاعة، ويدعو إلى الألفة، وبه تصلح الأعمال وتنمو الأموال، وتنتعش الرعية، وتكمل المزية، وقد ندب الله عز وجل الخلق إليه، وحثّهم عليه"(٩٣). حتى ولو مع أعدائهم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾(٩٤). وقيل: لا سلطان إلا برجال ولا رجال إلا بمال ولا مال إلا بعمارة ولا عمارة إلا بعدل وحسن سياسة(٩٥). وقال الأرموي: "إن من عدل في حكمه وكف عن ظلمه نصره الحق وأطاعه الخلق، وصفت له النعماء، وأقبلت عليه الدنيا، وتهنأ بالعيش، واستغنى عن الجيش، وملك القلوب وأمن الحروب وصارت طاعته فرضا، وظلت رعيته جندا، وعدل الملك لدينه أحوط، ولدنياه أضبط، ولأوليائه أثبت، ولأعدائه أكبت، فإن الظالم مخذول وإن حشد، وإن العادل منصور وإن انفرد، وأن الله تعالى أوجب لخلفائه على عباده الطاعة، ولهم عليه بسط العدل والرأفة وإحياء السنن الصالحة، فإذا أدى كل إلى كل حقه كان ذلك سببا لتمام النعمة واتساق الكلمة ودوام الألفة"(٩٦).

أنواع العدل ووسائل تحقيقه كما ذكرها العلماء:

لقد أفاض العلماء في ذكر أنواع العدل لدرجة صعوبة إحصاء كل هذه الأنواع، وما ذلك إلا لأهمية العدل، يقول الماوردي عن العدل وأنواعه، وذلك عندما حدد ست قواعد تصلح بها الدنيا ألا وهي: "دين متبع، وسلطان قاهر، وعدل شامل، وأمن عام، وخصب دائم، وأمل فسيح". ثم يشرح كل

٩٢- ضياء الدين الريس، **النظريات السياسية الإسلامية**، مكتبة دار التراث، القاهرة، ص ٣٢٩.

٩٣- **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، ص ١٨٣.

٩٤- سورة المائدة، الآية: ٨.

٩٥- ابن قتيبة، **عيون الأخبار**، كتاب السلطان، دار الكتاب العربي، بيروت، ج ١، ص ٩.

٩٦- الأرموي، **أدب الملوك بالعدل**، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ١٢٢- ١٢٤.

قاعدة من القواعد السابقة شرحا مستفيضا... إلى أن يذكر قول بعض العلماء: "الأدب أدبان: أدب شريعة وأدب سياسة، فأدب الشريعة ما أدى الفرض، وأدب السياسة ما عمر الأرض، وكلاهما يرجع إلى العدل الذي به سلامة السلطان، وعمارة البلدان، لأن من ترك الفرض فقد ظلم نفسه، ومن خرب الأرض فقد ظلم غيره"(٩٧). "وأما العدل الشامل، فيدعو إلى الألفة، ويبعث على الطاعة، وتعمر به البلاد، وتنمو به الأموال، ويكثر معه النسل، ويأمن به السلطان، فقد قال الهرمزان لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد نام متبذلا: "عدلت فأمنت فنمت". ثم يقول عن أنواع العدل "... وإذا كان العدل من إحدى قواعد الدنيا التي لا انتظام لها إلا به، ولا صلح فيها إلا معه ويجب أن يبدأ بعدل الإنسان مع نفسه ثم بعدله مع غيره. فأما عدله مع نفسه فيكون بحملها على المصالح، وكفها عن القبائح، ثم بالوقوف في أحوالها على أعدل الأمرين: من تجاوز أو تقصير. فإن التجاوز فيها جور، والتقصير فيها ظلم، ومن ظلم نفسه فهو لغيره أظلم، ومن جار عليها فهو على غيره أجور، وقد قال بعض الحكماء: من توانى في نفسه ضاع.

وأما عدله مع غيره فينقسم حال الإنسان مع غيره إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول:

عدل الإنسان فيمن دونه، كالسلطان في رعيته، والرئيس مع صحابته، فعدله فيهم يكون بأربعة أشياء: باتباع الميسور، وحذف المعسور، وترك التسلط بالقوة، وابتغاء الحق في السيرة، فإن اتباع الميسور أدوم وحذف المعسور أسلم، وترك التسلط أعطف على المحبة، وابتغاء الحق أبعث على النصرة، وهذه أمور إن لم تسلم للزعيم المدبر كان الفساد بنظره أكثر، والاختلاف بتدبيره أظهر، روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أشد الناس عذابا يوم القيامة من أشركه الله في سلطانه فجار في حكمه"(٩٨) وقال بعض الحكماء: الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم، ومعنى ذلك أن الملك ينتصر رغم كفره، ولكنه يُهزم إذا كان مع الملك ظلم. وقال بعض الأدباء: ليس للجائر جار، ولا تعمر له دار. وقال بعض الحكماء: العجب من ملك استفسد رعيته وهو يعلم أن عزه بطاعتهم، وقال أردشير بن بابك: إذا رغب الملك عن العدل رغبت الرعية عن طاعته(٩٩). وعند ذلك تكون هزيمته ونهايته.

٩٧- الماوردي، **أدب الدنيا والدين**، دار الهلال، بيروت، ص ١٣٥-١٣٦.

٩٨- الزبير بن بكار، **الأخبار والموفقيات**، طبعة عالم الكتب ط ٢، ص ١٥٠، والحديث مرفوع حدث به المدائني.

٩٩- المصدر السابق، ص ١٤٢.

القسم الثاني:

عدل مع من فوقه، كالرعية مع سلطانها والصحابة مع رئيسها، وهذا يكون بثلاثة أشياء: بإخلاص الطاعة، وبذل النصرة، وصدق الولاء، فإن إخلاص الطاعة أجمع للشمل، وبذل النصرة أدفع للعدو، وصدق الولاء أنفى لسوء الظن، وهذه أمور إن لم تجتمع في المرء تسلط عليه من كان يدفع عنه، واضطر إلى اتقاء من كان يقيه، قال البحتري:

متى أحوجت ذا كرم تخطى إليك ببعض أخلاق اللئام

وفي استمرار هذا حل نظام جامع، وفساد صلاح شامل.

القسم الثالث:

عدل مع أكفائه، ويكون بثلاثة أشياء: بترك الاستطالة ومجانبة الإدلال وكف الأذى، لأن ترك الاستطالة آلف، ومجانبة الإدلال أعطف، وكف الأذى أنصف، وهذه أمور إن تخلص في الأكفاء، أسرع فيهم تقاطع الأعداء ففسدوا وأفسدوا"(١٠٠). إلى أن يقول الماوردي: "ولست تجد مُساءً ـ ومنه الهزيمة ـ إلا وسبب نتيجته الخروج فيه عن حال العدل، إلى ما ليس بعدل من حالتي الزيادة والنقصان، فإذن لا شيء أنفع من العدل، كما أنه لا شيء أضر مما ليس بعدل"(١٠١).

أما الراغب الأصفهاني فيقسم العدل إلى خمسة أنواع: عدل مع الله، ومع النفس، ومع سلف الأمة وعلمائها، ومع من يتعامل معه، وعدل مع الحكام والأمراء، وأشار إلى الأنواع السابقة حيث قال: "والذي يجب أن يستعمل الإنسان معه العدل خمسة: الأول: بينه وبين رب العزة بمعرفة أحكامه، والثاني: من قوى نفسه وهو أن يجعل هواه مستسلما لعقله، فقد قيل: أعدل الناس من أنصف عقله من هواه، والثالث: بينه وبين أسلافه الماضين في إنفاذ وصاياهم والدعاء لهم، والرابع: بينه وبين معامليه من أداء الحقوق والإنصاف في المعاملات من المبايعات والمقارضات والمكارمات، والخامس: بثّ النصيحة بين الناس على سبيل الحكم وذلك إلى الولاة وخلفائهم"(١٠٢).

وفي عصرنا الحاضر يمكن تقسيم العدل إلى أنواع أهمها:

١- العدل في الأمور السياسية والقانونية: يتعرض الإنسان للظلم فرداً كان أو جماعة عندما يكون

١٠٠- المصدر السابق، ص ١٤٢.

١٠١- المصدر السابق، ص ١٤٤.

١٠٢- **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، أنواع العدل، ص ١٨٥.

النظام السياسي في الدولة بأيدي حكام ظلمة وخونة، وذلك لأن السلطة السياسية إذا كانت في أيدي حكام ظالمين يظلمون الرعية ويسلبون حقوقها، فإن ذلك يؤدي إلى انعدام الأمن والطمأنينة في ذلك المجتمع.

فالعدل السياسي يشمل إزالة الظلم من الأنظمة واللوائح، وكذلك إزالة الظلم من الجهاز التنفيذي والإداري للدولة، وكذلك حق الترشيح للمجالس النيابية والمحلية دون تفرقة إلا من صدر ضده حكم يمنعه من ذلك أو من شارك في إفساد الحياة السياسية بعمله مع الظالمين الذين أفسدوا الحياة السياسية والاقتصادية، حيث يروى أنه لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة عمد إلى جميع الولاة والحكام للمسئولين الظالمين فعزلهم عن مناصبهم، وكان يكره أن يولي أحداً ممن غمس نفسه في الظلم أو عمل مع الظلمة لاسيما الحجاج. قالوا: استعمل عمر بن عبد العزيز رجلاً، فقيل له: كان عاملا للحجاج فعزله، فقال الرجل: إنما عملت له شيئاً يسيراً، فقال له عمر: "حسبك بصحبته يوما أو بعض يوم شؤماً وشراً"(١٠٣).

والعدل القانوني يكون بسيادة القانون وتطبيقه على الجميع بلا استثناء، قال صلى الله عليه وسلم: "لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها"(١٠٤).

٢- العدل في القول: قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾(١٠٥) وهذا الأمر يدخل فيه المفتون ومن يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وفي زماننا رجال الإعلام والصحافة، وذلك لأن القول السديد يصلح العمل، ويساعد على نشر العدل في المجتمع، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾(١٠٦). فالتقوى والقول السديد يصلحان عمل الإنسان والمجتمع والجماعة، والعمل الصالح ما تصلح به الدنيا والآخرة.

قال الماوردي: "وعدلك في الأقوال: ألا تخاطب الفاضل بخطاب المفضول، ولا العالم بخطاب الجهول، وتقف الحمد والذم على حسب الإحسان والإساءة ليكون إرغابك وإرهابك على وفق أسبابها من غير سرف ولا تقصير"(١٠٧).

١٠٣- الإمام الغزالي، **إحياء علوم الدين**، باب ما يحل من مخالطة السلاطين الظلمة وما يحرم، طبعة الحلبي، ج ٢، ص ١٥٦.

١٠٤- **صحيح البخاري**، كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة إذا رفع الأمر على الحاكم، ج ٢، ص ١٠٠٣.

١٠٥- سورة الأنعام، الآية: ١٥٢.

١٠٦- سورة الأحزاب، الآية: ٧٠-٧١.

١٠٧- الماوردي، **قوانين الوزارة**، العدل في الأقوال، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، ص ٤٨.

٣- العدل في الأفعال: قال الماوردي: وعدلك في الأفعال: ألا تعاقب إلا على ذنب ولا تعفو إلا عن إنابة، ولا يبعثك السخط على إطراح المحاسن ولا يحملك الرضا على العفو عن المسيء، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾(١٠٨).

٤- العدل في الأمور الاقتصادية والمالية: قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ﴾(١٠٩) وقال تعالى: ﴿أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾(١١٠) فالعدل في الأمور الاقتصادية يكون بمنع الربا والاحتكار، ومنع الغش في المبيعات والصناعات، ومنع الغش في السلع الغذائية والدوائية، والعدل في الأمور المالية بعدم تخفيض قيمة النقود، وعلى الدولة إقامة العدل في كل ما مضى.

٥- العدل في الشهادة والقضاء والعقوبات: فالعدل في الشهادة بقبول شهادة العدل ورد شهادة الفاسق، قال تعالى: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾(١١١) والعدل أمام القضاء لا يحتاج إلى بيان، فالناس جميعا أمام القانون سواء دون تمييز بين غني وفقير أو صاحب جاه أو منصب أو طبقة أو عائلة، فالكل سواء في الحكم وفي العقوبة، والعدل كذلك يكون في الإجراءات فلا يقرب خصم ويبعد الآخر، ولا يلين لأحد ويشدد مع الآخر، قال عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري: "أس بين الناس في مجلسك ووجهك وقضائك"(١١٢).

٦- العدل في النظام الأسري: فالعدل من الرجل بين أولاده في المنع والعطاء والوصية، وكذلك العدل مع النساء في المبيت والمعاملة والميراث والنفقة، والعدل في سن القوانين من جانب الحكومات فلا تحابي طرفا على طرف بل يجب أن تكون التشريعات قائمة على العدل ومصلحة الأسرة والأولاد.

٧- العدل مع الأعداء والخصوم: قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾(١١٣) والمعنى لا يحملنكم بغض قوم وعداوتهم لكم، أو

١٠٨- سورة النساء، الآية: ١٣٥.

١٠٩- سورة الرحمن، الآية: ٩.

١١٠- سورة الشعراء، الآية: ١٨١- ١٨٣.

١١١- سورة الطلاق، الآية: ٢.

١١٢- السيوطي، **الأشباه والنظائر**، دار الفكر العربي، مصر، ص ٨.

١١٣- سورة المائدة، الآية: ٨.

بغضكم وعداوتكم لهم، على ترك العدل وإهماله بأن تظلموهم وتجوروا في حقهم، لا لشيء إلا لكونهم أعداء، فالعدل واجب فوق الأهواء وحظوظ النفس، وفوق المحبة والعداوة مهما كان سببها، فإقامته سبيل لاتقاء غضب الله وعقابه وسخطه، ومن ثم كان تركه من أكبر المعاصي لما يتولد عنه من المفاسد(١١٤).

وإذا كان وجوب العدل في حق الكفار بهذه المثابة فما ظنك بوجوبه في حق المسلمين(١١٥). ويدخل في هذا العدل مع أهل الذمة(١١٦). فهم مثل المسلمين سواء بسواء متساوون في الحقوق ويتحمل المسلمون أكثر منهم في الواجبات، وحريتهم في العقيدة وفي التنقل وحريتهم الشخصية مكفولة، وكفالتهم على الدولة واجبة، قال صلى الله عليه وسلم: "من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة"(١١٧) وكتب الفقهاء ووصايا الخلفاء مليئة بهذه الحقوق فلتراجع في موضعها.

٨- العدل في تولية الوظائف: من العدل في تولية الوظائف العامة أن يولي الأكفاء، وتقديم الأكفاء على الكفء، دون محاباة لقرابة أو صداقة أو موافقة في بلد أو مذهب أو لأيّ سبب لا يتصل بالكفاءة، قال صلى الله عليه وسلم: "من تولى من أمر المسلمين شيئاً فاستعمل عليهم رجلا وهو يعلم أن فيهم من هو خير منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين"(١١٨).

٩- العدل الاجتماعي وحقوق الناس على الدولة: حيث يستحق كل فرد في الدولة تأمين كفايته في الغذاء والكساء والسكن والعلاج، إذا كان أجر عمله لا يكفيه أو كان عاجزاً أو فقيراً أو شيخاً كبيراً أو طفلاً يتيماً، فالعدل الاجتماعي والتكافل الاجتماعي حرصت الشريعة الغراء على تحقيقه بأكثر من وسيلة.

وعلى كل فرد أن يؤدي دوره ويقوم بمسئولياته في إقامة هذا العدل كل حسب إمكانياته، فمثلا إذا كان المجتمع يحتاج إلى إقامة مستشفى فوظيفة العالم أن يحثّ الناس ويرغبهم في ذلك في خطبه، والصحفي يكتب عن الموضوع في جريدته ومجلته، والشعراء ينشدون أشعاراً في ذلك، والأغنياء

١١٤- عبد الكريم حامدي، **مقاصد القرآن من تشريع الأحكام**، دار ابن حزم، بيروت، ص ٥٤٢.

١١٥- **تفسير أبي السعود**، ج ٢، ص ٢٠٩.

١١٦- أبو عبد الرحمن عبد الباقي الحقاني، **السياسة والإدارة**، المكتبة الحقانية، بشاور، باكستان، ج ١، ص ٢٠٦.

١١٧- **سنن أبي داود**، ج ٢، ص ٧٧، البيهقي، **السنن الكبرى**، دار المعرفة، بيروت، ج ٩، ص ٢٠٧.

١١٨- عمر بن دينار عن أبي عباس، **المعجم الكبير**، ج ٨، ص ١٤٣، برقم ١١٢١٦.

يتبرعون للبناء وشراء المعدات، والسلطة عليها التنفيذ، ومن قصر في أداء واجبه فهو آثم(١١٩).

والحكومة إذا لم تقم بمسئولياتها السابقة تكون حكومة ظالمة لأنها عندئذ تبحث عن مصالحها الشخصية ومصالح أولاد المسئولين وأقاربهم، أما عندما تقدم مصلحة الشعب على مصلحتها الشخصية كما يحدث في الغرب فإنها تكون حكومة عادلة موفقة ومنتصرة بإذن الله تعالى.

أما عن وسائل تحقيق العدل:

قال الشيرازي: واعلم أن العدل لا يتحقق من الملك إلا بلزوم عشر خصال:

أحدها: إقامة منار الدين، وحفظ شعائره، والحثّ على العمل به من غير إهمال له، ولا تفريط بحقوقه.

الثاني: حراسة البيضة والذب عن الرعية من عدو في الدين أو باغ في النفس والمال.

الثالث: عمارة البلدان باعتماد المصالح، وتهذيب السبل والمسالك.

الرابع: النظر في تعدية الولاة، وأهل العز من الأعوان على الرعية لأن تعديهم منسوب إليه، قال الشاعر:

ومن يربـط الكـلب العقور ببابه فعقر جميع الناس من رابط الكلب

كذلك من ولى ابنه وهـو ظالـم فظلـم جميع الناس مـن قبل الأب

الخامس: النظر في أحوال الجند وغيرهم من أهل الرزق لئلا تبخسهم (تنقصهم) العمال أرزاقهم أو يؤخرون العطاء فيجحف الانتظار بهم.

السادس: الجلوس لكشف المظالم، والنظر بين المتشاجرين من الرعية، والفصل بينهم بالنصفة على وجه الشرع.

السابع: تقدير ما يخرج من بيت المال على طبقات أربابه من غير إسراف ولا إقتار.

الثامن: إقامة الحدود على أهل الجرائم بالشرع المطهر على قدر الجريمة.

التاسع: اختيار خلفائه في الأمور، وولاته وقضاته وعماله بأن يكونوا من أهل الكفاية والأمانة والحذق والدراية فيما هم بصدده.

العاشر: تنفيذ ما وقف من أحكام القضاة وأهل الحسبة، وما عجزوا عن تنفيذه لقوة يد المحكوم عليه وتعززه فينفذ الملك ما حكموه عليه بالشرع.

فإن فعل الملك هذه العشر كان مؤدياً لحق الله تعالى في الرعية بالعدل الذي أمر الله تعالى به وكان مستوجبا لطاعتهم، ومستحقا لمناصحتهم، وإن ترك شيئاً من ذلك كان عن العدل ناكبا وفي الجور راغبا. قال الشاعر:

١١٩- **السياسة والإدارة**، ج ١، ص ٢٠٩.

وُلّـوا فما عدلـوا أيام دولتهـم حتى إذا عزلوا ذلوا فما رُحموا[١٢٠]

وكتب الموصلي: "وطريقة العدل: أن يجمع السلطان إلى نفسه حملة العلم الذين هم حفاظه ورعاته وفقهاؤه... فيتخذ العلماء شعارا والصالحين دثارا، فتدور المملكة على نصائح العلماء ودعوات الصلحاء[١٢١].

وذكر الإمام الغزالي عشرة أصول للعدل، إذا طبقها الحاكم ونفذها لن يواجه مشكلة في حياته وسيسير المجتمع نحو الرقي والتقدم والازدهار. وها هي الأصول التي ذكرها:

١- الأصل الأول: هو أن يعرف أولاً قدر الولاية ويعلم خطرها، فإن الولاية نعمة من الله عز وجل من قام بحقها نال من السعادة ما لا نهاية له ولا سعادة بعده، ومن قصر عنه النهوض بحقها حصل في شقاوة لا شقاوة بعدها إلا الكفر بالله، والدليل على عظم قدرها وجلالة خطرها قوله صلى الله عليه وسلم: "يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة"[١٢٢] فإذا كان كذلك فلا نعمة أجل من أن يعطى العبد درجة السلطنة ويجعل ساعة من عمره بجميع عمر غيره، ومن لم يعرف قدر هذه النعمة واشتغل بظلمه وهواه يخاف عليه أن يجعله الله من جملة أعدائه.

٢- الأصل الثاني: أن يشتاق أبداً إلى رؤية العلماء ويحرص على استماع نصحهم، وأن يحذر من علماء السوء الذين يحرصون على الدنيا، وذلك لأنهم يتقربون إلى السلطان بالثناء عليه ويغرونه ويطلبون رضاه طمعاً في أمواله، وليحصلوا شيئاً منه بالمكر والحيل، أما العالم الورع: فهو الذي لا يطمع فيما عند السلطان من المال بل ينصفه في الوعظ والمقال. (ويمكن أن يقوم بهذا الآن رجال الصحافة والإعلام المخلصون).

٣- الأصل الثالث: ألا يكتفي السلطان برفع يده عن الظلم، بل يجب عليه أن يهذب غلمانه وأصحابه وعماله ونوابه فلا يرضى لهم بظلم الرعية فإنه مسئول عن ظلمهم بقدر ما هو مسئول عن ظلمه.

٤- الأصل الرابع: أن لا يتصف السلطان بالتكبر والغضب لأن التكبر يجلب عليه السخط الذي يدعو إلى الانتقام، وأما الغضب فهو عدم العقل وآفته، وإن كان الغضب هو الغالب ينبغي على السلطان أن يميل في الأمور إلى جانب العفو، وأن يتعود التجاوز والصفح فإذا صار ذلك عادة له أصبح شبيها بالأنبياء والأولياء.

١٢٠- عبد الله الشيرازي، **المنهج المسلوك في سياسة الملوك**، مكتبة المنار، الأردن، ص ٢٤٩-٢٥٥.

١٢١- الموصلي، **حسن السلوك الحافظ دولة الملوك**، دار الوطن، الرياض، ص ٧١.

١٢٢- الطبراني، **المعجم الكبير**، ج ١١، ص ٣٣٧، وقال المنذري إسناده حسن، **الترغيب والترهيب**، ج ٣، ص ٢٤٦.

٥- الأصل الخامس: أن ينظر الحاكم إلى رعيته على أنه واحد منهم يشعر بمشاعرهم ويحس بآلامهم ويفرح بفرحهم، فكل ما لا يرضاه لنفسه لا يرضى به لأحد من المسلمين، وإن رضي لهم بما لا يرضاه لنفسه فقد خان رعيته وغش أهل ولايته.

٦- الأصل السادس: أن يعلم السلطان أن قضاء حوائج المسلمين أفضل من نوافل العبادات، فعليه إذن أن لا يحقر انتظار أصحاب الحاجات ووقوفهم ببابه، بل عليه أن يحذر من هذا الخطر أن يقع فيه، فمتى كان لأحد المسلمين حاجة فلا ينشغل عن قضائها بنوافل العبادات.

٧- الأصل السابع: أن لا يعود نفسه على الاشتغال بالشهوات من لبس الثياب الفاخرة وأكل الأطعمة الطيبة، وعليه باستعمال القناعة في جميع الأشياء فلا عدل بلا قناعة.

٨- الأصل الثامن: إذا كان في إمكان السلطان استخدام الرفق واللطف في معالجة الأمور فلا يجب عليه أن يعالجها بالشدة والعنف.

٩- الأصل التاسع: على السلطان أن يجتهد في أن ترضى عنه رعيته بموافقة الشرع تأكيداً لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم..."(١٢٣).

كما ينبغي للوالي ألا يغتر بالثناء عليه، لأن من يثني عليه إنما يفعل ذلك من خوفه منه، أو طمعا فيما عنده، بل يجب عليه أن يعين من يعتمد عليه في السؤال عن حاله من الرعية ليعلم عيبه من ألسنة الناس(١٢٤).

١٠- الأصل العاشر: أن لا يطلب رضا أحد من الناس بمخالفة الشرع، فإن من سخط بخلاف الشرع لا يضر سخطه، لأن كل من يؤخذ منه الحق لا بد أن يسخط، ولا يمكن أن يرضى الخصمين، وأكثر الناس جهلا من ترك رضا الحق لأجل رضا الخلق.

كما يجب على السلطان: أن يعمل بالسياسة وأن يكون مع السياسة عادلا وأن يكون مهيبا بحيث إذا رأته الرعية خافوا ولو كان بعيدا... فإن زماننا هذا لهو الزمان الذي هلك فيه الخلائق جميعا، وقد خبثت أعمال الناس ونياتهم، وإذا لم يكن فيه للسلطان سياسة على الخلائق ولا هيبة لم يثبتوا على الطاعة والفلاح(١٢٥).

١٢٣- **صحيح مسلم**، كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال، ج ٢، ص ١٢٩.

١٢٤- الحقاني، **السياسة والإدارة**، ج ١، ص ٢١٠-٢١٢.

١٢٥- الغزالي، **التبر المسبوك في نصيحة الملوك**، دار ابن زيدون للطباعة، ص ١٩-٣٣ بتصرف.

وقال بعض البلغاء: إن العدل ميزان الله الذي وضعه للخلق ونصبه للحق فلا تخالفه في ميزانه، ولا تعارضه في سلطانه، واستعن على العدل بخلتين: قلة الطمع وكثرة الورع[١٢٦].

وإذا كانت هذه هي أنواع العدل ووسائل تطبيقه، فانظر معي على حكامنا الذين كانت تهزمهم إسرائيل وترعبهم أمريكا ماذا يفعلون بشعوبهم؟ لقد سرقوا أموال شعوبهم، وزوّروا إرادتهم بالانتخابات المزورة، وقربوا أولادهم وأقاربهم بغير حق في المناصب والعطايا، وعندما خرجت شعوبهم بالثورة عليهم وطالبوهم بالتنحي، استخدموا في شعوبهم القتل ـ وكأنهم ليسوا بشراً ولا حتى حيوانات ـ مع علمهم بأن الدماء تجلب كثيراً من الدماء، ألم يقل صلاح الدين لابنه وهو يوصيه: واحذر الدم فإن الدم لا ينام[١٢٧]. انظر ماذا فعل حكامنا بمعارضيهم: قتل وسجن وتعذيب وتشريد بغير حق. أهؤلاء الحكام الظلمة ينصرهم الله على إسرائيل، إنهم لو انتصروا لملأوا الأرض فساداً وخراباً. انظر إلى حكام إسرائيل والغرب ـ غير المسلمين ـ مع شعوبهم عندما يطالبونهم بالتنحي ـ هل يطلقون عليهم الرصاص؟ كما فعل هؤلاء المحسوبون على الإسلام ظلما وزورا؟ هل يسرقون شعوبهم كما فعل حكامنا مع شعوبهم؟ هل يولّون في الغرب الرجل لقرابته للحاكم أو لصداقته أو لموافقته في بلد أو مذهب كما يحدث عندنا؟ كلا والله إنهم يولّون الرجل لكفاءته ـ كما أمرنا إسلامنا ـ ولذلك هم ينتصرون علينا، أعلمنا لماذا يهزمنا عدونا؟ لأننا لسنا مؤمنين والله يقول وقوله الحق: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

حكامنا: سامحني وسامحكم الله وغفر الله لي ولكم، ولعل شعوبنا تعتبر بما حدث فلا تستكين بعد اليوم لظالم ولا تمكنه منها أبدا، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾[١٢٨] هكذا تبين الآية أن مجرد الركون إلى الظالم والرضا به والعمل معه يجعل الإنسان لا ينصره الله، وتمسّه النار والعياذ بالله. كم منا ركن إلى الظالمين وعمل معهم وخضع لهم وتملقهم، فعلينا بالتوبة رجاء أن يتوب الله علينا ويتقبل منا. أيظن المسلمون أن تنازع الأمم والدول على ممالكهم وسلبها من أيديهم مخالف لعدل الله وسنته الحكيمة التي جاء بها الإسلام؟ كلا والله إنه تعالى ما فرط في الكتاب من شيء، ولكننا الذين فرطنا فذقنا جزاء تفريطنا، فإن تبنا وأصلحنا تاب الله علينا وإلا فقد مضت سنة الأولين. وختاماً أنقل بعضا من كلام الحكماء عن العدل وعاقبته:

١٢٦- الماوردي، **أدب الدنيا والدين**، ص ١٤١.

١٢٧- ويل ديورنت، **قصة الحضارة**، ص ١٠٥.

١٢٨- سورة هود، الآية: ١١٣.

قالوا: الملك بالرجال، والجند بالأموال، والأموال بالعمران، والعمران بالعدل.

الولاية: إذا لم يعم جوانبها عدل عزل صاحبها لا محالة.

الأمن أهنأ عيش والعدل أقوم جيش.

ليس للجائر جار ولا تعمر له دار.

بالعدل والإنصاف تكون مدة الائتلاف[١٢٩].

العامل الثالث: موالاة بعض المسلمين لأعداء الإسلام:

إن من أهم خطوات النصر على الأعداء، والاستعداد للمواجهة والحرب معهم هي موالاة الأولياء من المسلمين ومعاداة الأعداء. وإذا كان أعداء الإسلام تجمعوا ـ وكثير من تجمعاتهم ضد الإسلام ـ فمن اللازم أن يجتمع المسلمون ويوالي بعضهم بعضا، وألا تكون هناك موالاة بين بعض المسلمين وبين أعدائهم، لأن موالاة المسلمين بعضهم بعضا من أسباب نصرهم، وموالاة المسلمين للكفار من أسباب هزيمة المسلمين وانكسارهم، وقد نصت آيات الذكر الحكيم على هذا المعنى بكل وضوح حيث أمرت بموالاة المسلمين مع بعضهم البعض، ونهت وحرمت الموالاة بين المسلمين وأعدائهم.

١- (أ) قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ ﴾[١٣٠].

(ب) وقال تعالى: ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ ﴾[١٣١].

٢- (أ) قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[١٣٢].

(ب) وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُ ﴾[١٣٣].

(ج) قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ

١٢٩- **أدب الدنيا والدين**، ص ١٤١.

١٣٠- سورة الأنفال، الآية: ٧٢.

١٣١- سورة التوبة، الآية: ٧١.

١٣٢- سورة آل عمران، الآية: ٢٨.

١٣٣- سورة آل عمران، الآية: ١١٨.

فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(١٣٤).

(د) قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾(١٣٥).

(هـ) قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾(١٣٦).

(و) قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ ﴾(١٣٧).

(ز) قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(١٣٨).

(ح) قال تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۙ ١٣٨ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾(١٣٩).

إن الآيات السابقة توضح بكل جلاء وجوب موالاة المؤمنين مع بعضهم البعض وحرمة موالاة المسلمين مع الأعداء. أما معنى الموالاة فقد جاء في **لسان العرب**: "الولاية بالكسر: السلطان، والولاية بالفتح والكسر بمعنى النصرة، والولي: الصديق والنصير، قال ابن الأعرابي: الولي: التابع المحب، والموالاة ضد المعاداة، والولي ضد العدو ﴿وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ﴾ أي تنصروهم، ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي توليتم أمور الناس والمولي الحليف، وهو من انضم إليك فعز بعزك وامتنع بمنعتك"(١٤٠). وقال تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ أي محبتهم ونصرتهم. فالآية الأولى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ ..﴾ جاءت هذه الآية بعد آية: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ

١٣٤- سورة المائدة، الآية: ٥١.

١٣٥- سورة التوبة، الآية: ٢٣.

١٣٦- سورة المجادلة، الآية: ٢٢.

١٣٧- سورة الممتحنة، الآية: ١.

١٣٨- سورة النساء، الآية: ١٤٤.

١٣٩- سورة النساء، الآيتان: ١٣٨-١٣٩.

١٤٠- ابن منظور، **لسان العرب**، المجلد التاسع، ص ٤٠٥-٤١١.

﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(١٤١) والتي نبّه فيها الله سبحانه وتعالى النبي والمؤمنين إلى الالتجاء إليه معترفين أن بيده الملك والعز ومجامع الخير والسلطان المطلق في تصريف الكون يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، فإذا كانت العزة والقوة له ـ عز شأنه ـ فمن الجهل والغرور أن يعتز بغيره من دونه، وأن يلتجأ إلى غير جنابه، أو يذل المؤمن في غير بابه.

جاء في **مفاتيح الغيب**: إن موالاة الكفار تعني الركون إليهم والمعونة والمظاهرة والنصرة، إما بسبب القرابة أو بسبب المحبة مع اعتقاد أن دينه باطل، فهذا لا يوجب الكفر إلا أنه منهي عنه، لأن الموالاة بهذا المعنى قد تجره إلى استحسان طريقته والرضا بدينه(١٤٢)، وذلك يخرجه عن الإسلام فلا جرم هدد الله فيه فقال تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾. وجاء في **تفسير المنار**: الأولياء: الأنصار، والاتخاذ يفيد معنى الاصطناع وهو عبارة عن مكاشفتهم بالأسرار الخاصة بمصلحة الدين، وقوله: **"من دون المؤمنين"** قيد في الاتخاذ أي لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء وأنصاراً في شيء تقدم فيه مصلحتهم على مصلحة المؤمنين، لأن في هذا اختيارا لهم وتفضيلا على المؤمنين بل فيه إعانة للكفر على الإيمان، ولو بطريق اللزوم، من شأن هذا ألا يصدر من مؤمن ولو كان فيه مصلحة خاصة له.

ويزعم الذين يقولون في الدين بغير علم، ويفسرون القرآن بالهوى في الرأي أن آية آل عمران، وما في معناها من النهي العام أو الخاص، كقوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ...﴾ يدل على أنه لا يجوز للمسلمين أن يحالفوا أو يتفقوا مع غيرهم، وإن كان الخلاف أو الاتفاق لمصلحتهم، وفاتهم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان محالفا لخزاعة وهم على شركهم، بل يزعم بعض المتحمسين في الدين ـ على جهل ـ أنه لا يجوز للمسلم أن يحسن معاملة غير المسلم أو معاشرته أو يثق به في أمر من الأمور. وإذا رجع المؤمن إلى سورة الممتحنة التي فصلت هذه المسألة ما لم تفصل في غيرها يجد الآية الأولى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ تفيد النهي عن موالاة أعداء الله ورسوله وإلقاء المودة إليهم بكونهم كفروا كفرا حملهم على إخراج الرسول والمؤمنين من وطنهم، لأنهم مؤمنون بالله، فكل شعب حربي يعامل المؤمنين مثل هذه المعاملة تحرم موالاته قطعا، ثم وصف هؤلاء الذين نهى عن موالاتهم أن يثقفوا المؤمنين ويعادوهم ويؤذوهم بأيديهم وألسنتهم، قال تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ

١٤١- سورة آل عمران، الآية: ٢٦.

١٤٢- الإمام الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ٤، ص ١٦٥.

قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١٤٣). وقال تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾(١٤٤). ويضيف أحد العلماء بأن بعض الناس فهم الآيات السابقة وأمثالها على أنها تدعو إلى الجفوة والقطيعة والكراهية لغير المسلمين، وإن كانوا من أهل دار الإسلام، والموالين للمسلمين والمخلصين لجماعتهم. والحق أن الذي يتأمل الآيات المذكورة سابقا تأملاً فاحصا ويدرس تواريخ نزولها وأسبابها وملابساتها يتبين له ما يأتي:

١- إن النهي إنما هو عن اتخاذ المخالفين أولياء بوصفهم جماعة متميزة بدياناتها وعقائدها وأفكارها وشعائرها أي بوصفهم يهوداً أو نصارى أو مجوساً أو نحو ذلك لا بوصفهم جيرانا أو زملاء أو مواطنين، والمفروض أن يكون ولاء المسلم للأمة الإسلامية وحدها، من هنا جاء التحذير في عدد من الآيات من اتخاذهم أولياء ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي أنه يتودد إليهم ويتقرب لهم على حساب جماعته، ولا يرضى نظام ديني ولا وضعي لأحد من أتباعه أن يدع جماعته التي ينتسب إليها، ويعيش بها ليجعل ولاءه لجماعة أخرى من دونها، وهذا ما يعبر عنه بلغة الوطنية بالخيانة.

٢- إن الموادة التي نهت عنها الآيات ليست موادة أي مخالف في الدين ولو كان سلماً للمسلمين وذمة لهم، إنما هي موادة من آذى المسلمين وحاد الله ورسوله ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ ومحاداة الله ورسوله ليست مجرد الكفر بهما، بل محاربته دعوتهما والوقوف في وجهها وإيذاء أهلها.

ويفهم من سورة الممتحنة أنها قسمت المخالفين في الدين إلى فريقين: فريق كان سلما للمسلمين لم يقاتلهم في الدين ولم يخرجهم من ديارهم فهؤلاء لهم حق البر والإقساط لهم. وفريق اتخذوا موقف العداوة والمحاداة للمسلمين بالقتال أو الإخراج من الديار أو المظاهرة والمعاونة على ذلك، فهؤلاء يحرم موالاتهم مثل مشركي مكة الذي ذاق المسلمون على أيديهم الويلات، ومفهوم هذا النص أن الفريق الآخر لا تحرم موالاته.

٣- كما أ باح الإسلام للمسلم التزوج من أهل الكتاب، والحياة الزوجية يجب أن تقوم على السكون والمودة والرحمة، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ

١٤٣- سورة الممتحنة، الآية: ٧.

١٤٤- سورة الممتحنة، الآية: ٨-٩.

بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾[١٤٥] وهذا يدل على أن موادة المسلم لغير المسلم لا حرج فيها، وكيف لا يواد الرجل زوجته إذا كانت كتابية؟ وكيف لا يواد الولد جده وجدته وخاله وخالته إذا كانت أمه ذمية؟

٤- إن الإسلام يؤكد إعلاء الرابطة الدينية على كل رابطة سواها، سواء أكانت رابطة نسبية أم إقليمية أم عنصرية أم طبقية، فالمسلم أقرب إلى المسلم من أي كافر ولو كان أباه أو ابنه أو أخاه، وهذا ليس في الإسلام وحده... بل هي طبيعة في كل دين، وكل عقيدة، ومن قرأ الإنجيل يجده يؤكد هذا المعنى في أكثر من موقف[١٤٦].

والمتأمل في الآيات السابقة يجد أن أغلبها تبدأ بـ: "يا أيها الذين آمنوا" أو بوصف للإيمان، ومن المعلوم أن النداء هذا عندما يذكر فعلى المسلم والمؤمن أن يعلم أن خيراً أمر به أو شراً نهي عنه، وليس هناك شر أكبر من أن تخضع الدولة لسلطان دولة أخرى. إن القرآن يجعل المودة بين المؤمنين وأولئك المشركين الذين آذوا الرسول ومن آمن به أشد الإيذاء وأخرجوهم من ديارهم مرجوة، وقال: إنه لا ينهاهم عن البر والقسط إلى من ليسوا كذلك من المشركين وهم أشد الناس عداوة للمؤمنين أيضاً، وأبعد عنهم من أهل الكتاب، ثم أكد ذلك بحصر النهي في الذين قاتلوهم في الدين، أي لأنهم مسلمون وأخرجوهم من ديارهم وساعدوا على إخراجهم منها ولكنه خص هذا النهي بتوليهم ونصرهم لا بمجاملتهم وحسن معاملتهم بالبر والإحسان والعدل، وهذا منتهى الحلم والسماح بل الفضل والكمال. ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ﴾ فيتخذ الكافرين أولياء وأنصاراً من دون المؤمنين فيما يخالف مصلحتهم من حيث هم مؤمنون ﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾ أي فليس من ولاية الله في شيء، وولاية الله من العبد طاعته ونصر دينه، ومن الله مثوبته ورضوانه، ومعنى العبارة أنه يكون بينه وبين الله غاية البعد، أي تنقطع صلة الإيمان بينه وبين الله تعالى، أي فيكون من الكافرين، كما في آية أخرى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾[١٤٧] أو معناه فيكون عدواً لله.

﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ استثناء من أعم الأحوال أي أن ترك موالاة الكافرين حتم على المؤمنين في كل حال إلا في حال الخوف من شيء تتقونه منهم، فلكم حينئذ أن توالوهم بقدر ما ينفي به

١٤٥- سورة الروم، الآية: ٢١.

١٤٦- يوسف القرضاوي، **الشريعة والحياة**، الثلاثاء ١٢ جمادى الأولى، ١٤٢٣هـ/ ٣١/ ٧/ ٢٠٠١م. برنامج يذاع بقناة الجزيرة من العاشرة وخمس دقائق مساءً بتوقيت مكة المكرمة وينشر بموقع القرضاوي في النت.

١٤٧- سورة المائدة، الآية: ٥١.

ذلك الشيء لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، وهذه الموالاة تكون صورية، لأنها للمؤمنين لا عليهم، والظاهر أن الاستثناء منقطع، والمعنى ليس لكم أن توالوهم على المؤمنين، ولكن لكم أن تتقوا ضررهم بموالاتهم، وإذا جازت موالاتهم لاتقاء الضرر فجوازها لأجل منفعة المسلمين يكون أولى، وعلى هذا يجوز لحكام المسلمين أن يحالفوا الدول غير المسلمة لأجل فائدة المؤمنين بدفع الضر أو جلب المنفعة، وليس لهم أن يوالوهم في شيء يضر بالمسلمين وإن لم يكونوا من رعيتهم، وهذه الموالاة لا تختص بوقت الضعف، بل هي جائزة في كل وقت. ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ روي عن ابن عباس أن معناه: عقاب نفسه، وذكر "النفس" ليعلم أن الوعيد صادر منه، وهو القادر على إنفاذه إذ لا يعجزه شيء ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فلا مهرب منه، قالوا: وفيه تهديد عظيم يشعر بتناهي المنهي عنه من الموالاة في القبح(١٤٨).

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ "بطانة الرجل" خاصته الذين يستبطنون أمره، وأصله من البطن الذي هو خلاف الظهر، ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ أي من سواكم ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ لا يقصرون فيما فيه الفساد عليكم، لا آلو جهدا أي أقصر، والخبال: الفساد(١٤٩). ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ من العنت وهو المشقة الشديدة، ﴿ٱلْبَغْضَآءُ﴾ شدة البغض وهو ضد الحب. والمعنى: في الآية نهي المؤمنين أن يتخذوا لأنفسهم من الكفار واليهود وأهل الأهواء دخلاء ولجآء يفاوضونهم في الآراء ويسندون إليهم أمورهم، وقد وصف للمؤمنين من لا يجوز أن يتخذونهم بطانة بأوصاف تعتبر قيودا وهي:

أ: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ وهو أنهم لا يألون ولا يقصرون في إفساد أمركم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

ب: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي تمنوا عنتكم أي وقوعكم في الضرر الشديد والمشقة.

ج: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي قد ظهرت علامات بغضائهم لكم من كلامهم، فهي لشدتها مما يعوزهم كتمانها، ويعز عليهم إخفاؤها.

د: ﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ بمعنى أن ما تخفي صدورهم منها أكبر مما يفيض على ألسنتهم من الدلائل عليها.

والمعنى في الآية: أن من كانت هذه صفته من شدة العداوة والحقد والفرح بنزول الشدائد على

١٤٨- تفسير المنار، ج ٣، ص ٢٣١- ٢٣٢.

١٤٩- تفسير القرطبي، طبعة دار الغد العربي، ج ٢، ص ١٥٢٥.

المؤمنين لم يكن أهلاً لأن يتخذ بطانة، لاسيما في هذا الأمر الجسيم من الجهاد الذي هو ملاك الدنيا والآخرة، ولقد أحسن القائل في قوله:

كل العداوة تـرجى إفاقتهـا إلا عداوة من عاداك من حسد

وأنت ترى أن هذه الصفات التي وصف بها من نهي عن اتخاذهم بطانة لو فرض أن اتصف بها من هو موافق لك في الدين والجنس والنسب لما جاز لك أن تتخذه بطانة لك إن كنت تعقل.

والآية تفيد أن الغرة من طبع المؤمن فإنه يبني أمره على اليسر والأمانة والصدق ولا يبحث عن العيوب، ولذلك يظهر لغيره من العيوب وإن كان بليدا ما لا يظهر له هو وإن كان ذكيا. وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان باتخاذ أهل الكتاب كتبة وأمناء وتسودوا بذلك عند الجهلة الأغبياء من الولاة والأمراء(١٥٠). ثم قال مبينا حسدهم وسوء طويتهم ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا﴾ والمس في الأصل: كاللمس، والمراد بـ: "تمسسكم" هنا تصبكم، ولعل اختيار لفظ المس في جانب الحسنة، والإصابة في جانب السيئة للإشعار بأن أولئك الكافرين يسوؤهم ما يصيب المسلمين من خير وإن قل، بأن كان لا يزيد على ما يمس باليد، وإنما يفرحون بالسيئة إذا أصابت المسلمين إصابة يشق احتمالها. وفي تفسير أبي السعود: وذكر المس مع الحسنة والإصابة مع السيئة للإيذان بأن مدار مساءتهم أدنى مراتب إصابة الحسنة، ومناط فرحهم تمام إصابة السيئة.

﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ والمراد: وإن تصبروا على عداوتهم وتتقوا اتخاذهم بطانة وموالاتهم من دون المؤمنين لا يضركم كيدهم وهم بمعزل عنكم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ المحيط بالعمل هو الواقف على دقائقه، فهو إذا دل على طريق النجاة لعامل من كيد الكائدين والوسيلة للخلاص من ضررهم فإنما يدل على الطريق الموصل للنجاة حتما، والوسيلة المؤدية إلى النجاح قطعا، فالكلام كالتعليل لكون الاستعانة بالصبر والتمسك بالتقوى شرطين للنجاح(١٥١).

أما آن لأمراء الشرق أن يدينوا لأحكام الله التي لا تنقض؟ ألم يأن لهم أن يرجعوا على حسهم ووجدانهم؟ ألم يأن وقت يعملون فيه بما أرشدتهم الحوادث ودلتهم عليه الرزايا والمصائب؟ ألم يأن لهم أن يكفوا عن تخريب بيوتهم بأيديهم وأيدي أعدائهم؟ ألا أيها الأمراء العظام مالكم وللأجانب عنكم؟ ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ قد علمتم شأنهم ولم تبق ريبة في أمرهم، سارعوا إلى أبناء أوطانكم

١٥٠- تفسير القرطبي، ج ٢، ص ١٥٢٦.

١٥١- تفسير المنار، ج ٤، ص ٧٥-٧٧.

وإخوان دينكم وملتكم وأقبلوا عليهم ببعض ما تقبلون به على غيرهم تجدون فيهم خير عون وأفضل نصير، اتبعوا سنة الله فيما ألهمكم وفطركم عليه كما فطر الناس أجمعين، وراعوا حكمته البالغة فيما أمركم وما نهاكم كيلا تضلوا ويهوى بكم الخطل إلى أسفل سافلين، ألم تروا ، ألم تعلموا ، ألم تحسبوا ، ألم تجربوا؟ إلى متى إلى متى؟ إنا لله وإنا إليه راجعون(١٥٢).

وهكذا عرفنا أن من أهم عوامل الانكسار والهزيمة والذل والعار والتي تعيشه بعض البلاد الإسلامية والعربية خاصة في زماننا هو موالاة بعض المسلمين للغزاة والمستعمرين والعمل معهم ضد مصلحة البلاد والأهل والقرابة، انظر معي لما يحدث في فلسطين الأبية المناضلة، كيف يعرف العدو الصهيوني اللدود بأسماء وعناصر تنظيم الجهاد وحماس وكتائب القسام والمجاهدين؟ وكيف يعرف أماكن وجودهم حتى تغير طائراته عليهم، أليس ذلك بسبب الجواسيس والعملاء من أبناء جلدتنا؟ أليس السبب هو موالاة بعضنا للأعداء؟ متى لا نسمع من أهل فلسطين والعراق قولهم: هاهم إخواننا ضدنا مع عدونا، وأبناؤنا من بني جنسنا أعوان للغاصب والمستعمر لنشر كلمته وإعلاء رايته. ولو كان في ذلك خفض لراية الإسلام... هؤلاء المنافقون المتذبذبون الذين هم أعوان المحتلين يصادقونهم ويوادونهم بدراهم معدودة، ومناصب موهومة... متى يرجعون عن موالاة الأعداء ويخافون الله وعقابه؟ متى يرجعون؟ لعل قومي يعلمون...

إن تاريخنا العربي ـ قديما وحديثا ـ يشهد بأن موالاة الأعداء كانت من أسباب الهزيمة أمام الأعداء، فاحتلال الإنجليز لمصر كان من أسبابه العملاء والخونة الذين ساعدوا الإنجليز على بني جلدتهم، وفي الحرب مع اليهود من عام ١٩٤٨م وحتى عام ٢٠١١م يشهد بأن من أسباب تفوق اليهود على العرب وجود الخونة والعملاء من العرب والمسلمين، واحتلال أمريكا للعراق وسقوط بغداد في ١٩/ ٣/ ٢٠٠١م كانت الموالاة للعدو من أهم الأسباب وهذا معروف لا يخفى على أحد في عصرنا، وأراد الأعداء خداع البسطاء بدعوى الحرية والديمقراطية، كلهم يرفعون هذه الشعارات وهي منهم براء،

١٥٢- بهذا نحتج على من يزعم أن ديننا يغرينا ببعض المخالف لنا، فالقرآن ينطق بأفصح عبارة وأصرحها واصفا المسلمين بهذا الوصف الذي هو من أ ثر الإسلام وهو أنهم يحبون أشد الناس عداوة لهم الذي لا يقصرون في إفساد أمرهم وتمنى عنتهم على أن بغضاءهم لهم ظاهرة وما خفي منها أكبر مما ظهر، أليس حب المؤمنين لأولئك الغادرين من اليهود والكائدين للمسلمين، وذكر القرآن ذلك يدل على طهارة قلوب المؤمنين وهو أقوى البراهين على أن هذا الدين دين حب ورحمة وتسامح، ولكن القرآن لم يقر المسلمين على هذه الغفلة، ونبههم إلى خطورتها على دينهم وبالتالي دنياهم، فالآية في سياق التحذير والإنذار، وأعم قانون لهذا هو آيتا الممتحنة.

ولكنها المصلحة وحب الهيمنة والسيطرة على موارد البلاد الاقتصادية، والحقد على الإسلام الذي جعلوا الناس تخاف منه وأنه إرهاب وشر مستطير في نظرهم وهم ناشروا العدالة والسلام والأمن، ألم يقلها فرعون من قبل عن موسى ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾[١٥٣] يا إلهي! موسى يظهر في الأرض الفساد وفرعون ينشر العدل والحرية، هذا هو منطق أمريكا والحلفاء: الإسلام إرهاب وهم زارعو شجرة الحرية والمبشرون بها في الأرض، ولا أملك إلا القول لمن ساعد أمريكا على احتلال العراق بلده وبلد أجداده: هنيئا لكم بجنتكم التي حفرها لكم بوش ثم أوصد أبوابها عليكم.

ب ـ من عوامل الانتصار: موالاة المسلمين بعضهم مع بعض:

وإذا كانت موالاة المسلمين للأعداء من أسباب الانكسار فإن عدم موالاة المسلمين للأعداء وموالاتهم لبعضهم من أسباب نصرهم، فهؤلاء أسلافنا والذين كتب الله لهم النصر في حروبهم مع أعدائهم، قد ساروا في عصورهم الزاهرة في ضوء التعليمات الدينية، ومنها عدم موالاة الكفار والحرص على موالاة المسلمين بعضهم مع بعض، فتنكروا لوشائج القربى وصلات النسب عندما تعارضت مع الدين وموالاة المسلمين، حتى كان الواحد منهم يقف يصارع أباه ويضرب ذوي رحمه؛ لأن الدين عنده أصبح أقوى من كل رحم وأسمى من كل نسب، ففي غزوة بدر وقف أبو عبيدة بن الجراح يحارب مع المسلمين، ووقف أبوه في جيش قريش، وحاول الأب أن يضرب ابنه مرة ومرة، وكان الابن يفر من الضربات ويتفاداها، ولكن عندما استحكمت الحلقات ووجد أبو عبيدة نفسه بين إحدى اثنتين: إما أن يضرب أباه، وإما يخذل عقيدته، آثر الأولى وأغمد سيفه في أبيه فقتله، وتساقطت دموعه، لا حزنا على أبيه، ولكن إشفاقا عليه لموته على الكفر، وفي نهاية الغزوة كان من رأي عمر أن يقتل الأسرى وصاح يا رسول الله أعطني أهلي لأقتلهم، وأسلم العباس لأخيه حمزة ليقتله، ولولا مزيد من الرحمة أبداه الرسول لكان ما أراد عمر[١٥٤].

وهذا العامل يقودنا إلى معرفة حكم الجاسوس. الجاسوس إما أن يكون كافراً أو مسلما، فالجاسوس الكافر: هو الذي يطلع على عورات المسلمين وينقلها إلى الكفار، ويجوز قتله أو استرقاقه ولو كان معاهدا أو ذميا[١٥٥]. قال الحطاب: اعلم أن الجاسوس إن كان كافرا حربيا فإنه يقتل بالإجماع. وأما المعاهد والذمي فقال مالك والأوزاعي: يصير ناقضاً للعهد فإن رأى الإمام استرقاقه أرقه ويجوز قتله[١٥٦].

١٥٣- سورة غافر، الآية: ٢٦.

١٥٤- أحمد شلبي، **الجهاد في التفكير الإسلامي**، مكتبة النهضة المصرية، ط ١، ١٩٦٨م، ص ٥٠.

١٥٥- الحطاب، **مواهب الجليل**، دار الفكر، ج ١، ص ٢٥٥ وتبيين **المسالك**، ج ٣، ص ٤٣٨-٤٣٩.

١٥٦- الأزهري، **جواهر الإكليل على شرح مختصر خليل**، طبعة عيسى الحلبي، ج ١، ص ٢٥٤.

كما يجوز قتل المسلم الجاسوس للكفار وهذا قول ابن القاسم وارتضاه ابن رشد حيث قال المواق: سئل مالك عن الجاسوس من المسلمين يؤخذ وقد كاتب الروم وأخبرهم خبر المسلمين؟ فقال ما سمعت فيه بشيء وأرى فيه اجتهاد الإمام، قال اللخمي: قول مالك هذا أحسن، وقال ابن القاسم: أرى أن تضرب عنقه، وقال ابن رشد: قول ابن القاسم هذا صحيح لأنه أضر من المحارب(١٥٧). وإن كان البحث يرى رجحان قول الإمام مالك وهو: الحكم فيه إلى اجتهاد الحاكم سواء أكان الجاسوس مسلما أم كافرا؛ لأن الحاكم قد يستبدل بالجاسوس مجموعة أسرى من المسلمين أو قد يستبدله بجاسوس للمسلمين كشفه الأعداء، وقد يرى قتله إذا كانت مصلحة المسلمين تقتضي قتله. ودليل من يرى قتل الجاسوس ما روي عن سلمة بن الأكوع قال: "أتي النبي صلى الله عليه وسلم عين وهو في سفر فجلس عند بعض أصحابه يتحدث ثم انسل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اطلبوه فاقتلوه، فسبقتهم إليه فقتلته فنفلني سلبه"(١٥٨).

وهكذا يأخذ الإسلام بكل حزم وشدة من يتسبب في نقل أخبار جيش الإسلام واستعداداته حتى لا تكون هذه الأخبار والمعلومات إحدى أسباب هزيمة جيش المسلمين، حيث أجاز الإسلام قتله حتى يرتدع كل من تسول له نفسه موالاة الأعداء والتقرب والتزلف لهم من أجل قرابة أو مادة أو سلطة وعدها إياه الأعداء. ثم تنبه السنة النبوية على عامل هام من عوامل الانتصار وهو: التعرف على أخبار العدو، حيث يمكن الاستعداد له وحسن التخطيط لمواجهته والتغلب عليه، حيث يروي أنس أن الرسول صلى الله عليه وسلم قبيل غزوة بدر بعث بسبس بن بشر عينا ينقل له أخبار عير أبي سفيان، كما أرسل طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد إلى طريق الشام يتجسسان له الأخبار، وكان له جواسيس بمكة يأتونه بأخبارها ومنهم عمه العباس وبشير بن سفيان العتكي، ولما نزل قريبا من بدر خرج هو بنفسه ومعه أبو بكر يستطلعان الأخبار متنكرين(١٥٩). وفي غزوة الأحزاب يروي جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنفر حوله: "من يأتيني بخبر القوم"؟ فقال الزبير: أنا، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: "لكل نبي حواري وحواريي الزبير"(١٦٠) ويتضح من ذلك أن العين الذي ينقل الأخبار يكون من قمة الأصفياء

١٥٧- **التاج والإكليل بهامش مواهب الجليل**، ج ٣، ص ٤٣٨-٤٣٩.

١٥٨- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، طبعة دار الشعب، ج ٦، ص ١١٧.

١٥٩- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مكتبة الكليات الأزهرية، ج ١، ص ٦٥.

١٦٠- **مسند الإمام أحمد**، برقم ١٤٦٤٣ والحديث مرفوع، و**مصنف ابن أبي شيبة** برقم ٣١٤٨٤ والحديث موقوف على الإمام علي كرم الله وجهه.

المخلصين للقائد، كما يجب أن يمتاز بالدهاء والمهارة[١٦١]. وهكذا كانت عادته عليه السلام في كل غزواته أن يكثر من العيون التي تأتي له بالأنباء حتى أنه أمر زيد بن ثابت أن يتعلم لغة اليهود وكتابتهم فتعلمها ليستطيع بهذا الطريق أن يتعرف أخبار اليهود[١٦٢]. وقد وضع الرسول صلى الله عليه وسلم منهاجاً دقيقا لعيونه وجواسيسه، فعلمهم ألا يحدث أحدهم حدثا ينبه الناس إليه أو أن يقتل أحداً إلا إذا أجبر على ذلك، لأن فوز الجاسوس بالمعلومات النافعة أهم من قتل عدد من الأعداء، ففي يوم الخندق أرسل حذيفة بن اليمان عينا على قريش ونهاه أن يحدث شيئاً حتى يعود إليه، وأرسل عبد الله الأسلمي ليقيم في هوازن متنكرا حتى يعلم عملهم ثم يأتيه بخبرهم ففعل[١٦٣]، وكان القائد يجزل المكافأة لمن يأتي له بالأخبار النافعة حتى وإن كانت كريهة لدى المسلمين، فالدقة والصدق كانا من أهم ما يلتزم العين به.

وفي عصرنا قلّ اهتمام المسلمين بالتعرف على أخبار العدو، بل أصبحنا رغم ثورة المعلومات لا نعرف عن أخبار عدونا إلا النزر اليسير الذي لا يغني ولا يسمن من جوع بل وغالبا ما تكون هذه الأخبار خطأ يوحي بها العدو إلينا عن طريق عملائه، أما العدو فهو حريص على معرفة أخبارنا وأحوالنا وقواتنا العسكرية والاقتصادية، بل ويعرف كل صغيرة وكبيرة وشاردة وواردة في قواتنا المسلحة العربية والإسلامية، ويعملون على عدم حصول قواتنا على الأسلحة الحديثة والمتقدمة، وكان من نتيجة ذلك أن هزم العرب في حروبهم الأخيرة مع العدو، وواقعنا الحاضر خير شاهد على ذلك.

العامل الرابع: من عوامل الانتصار (أ) الأخذ بأسباب القوة:

قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[١٦٤]. جاء في **تفسير القرطبي**: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم﴾ أمر من الله سبحانه وتعالى للمؤمنين بإعداد القوة للأعداء. وقيل: إنه لما اتفق أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر أن قصدوا الكفار بلا آلة ولا عدة، أمرهم الله أن لا يعودوا لمثله وأن يعدوا للكفار ما يمكنهم من آلة وعدة وقوة[١٦٥].

والمراد بالقوة هنا: ما يكون سبباً لحصول القوة وذكروا فيه وجوها:

١٦١- أحمد شلبي، **الجهاد في التفكير الإسلامي**، ص ٨٢.

١٦٢- **تاريخ الطبري**، دار التراث، بيروت، ج ٣، ص ٤٢.

١٦٣- أبو يوسف، **الخراج**، دار المعرفة، بيروت، ص ٧٢.

١٦٤- سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

١٦٥- **تفسير القرطبي**، ج ٤، ص ٢٩٦٢.

الأول: المراد من القوة أنواع الأسلحة.

الثاني: روي أنه صلى الله عليه وسلم قرأ الآية على المنبر وقال: "ألا إن القوة الرمي" قالها ثلاثاً.

الثالث: قال بعضهم "القوة هي الحصون".

الرابع: الأولى أن يقال: هذا عام في كل ما يتقوى به على حرب العدو، وكل ما هو آلة للغزو والجهاد فهو من جملة القوة، وقوله صلى الله عليه وسلم: "القوة الرمي" لا ينفي كون غير الرمي معتبراً، كما أن قوله صلى الله عليه وسلم: "الحج عرفة" و"الندم توبة"، لا ينفي اعتبار غيره بل يدل على أن هذا المذكور جزء شريف من المقصود، فكذلك ههنا.

وهذه الآية تدل على أن الاستعداد للجهاد بالنبل والسلاح وتعليم الفروسية والرمي فريضة، إلا أنه من فروض الكفايات(١٦٦). "ومن رباط الخيل" رباط من ربط يربط ربطاً، وارتبط يرتبط ارتباطا، ومربط الخيل ومرابطها بإزاء العدو وهي تقابل الاستعدادات الحربية في عصرنا الحديث(١٦٧). ثم ذكر سبحانه وتعالى ما لأجله أمر بإعداد هذه الأشياء فقال: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ذلك أن الكفار إذا علموا كون المسلمين متأهبين للجهاد ومستعدين له مستكملين لجميع الأسلحة والآلات خافوهم(١٦٨).

وهنا نلحظ أن قوة النفس وقوة العدة قد يسببان السلامة للمسلمين بما يبعثانه من رهبة في قلوب الأعداء وهذا يقرر بوضوح القاعدة العسكرية التي يقول بها القادة العسكريون في العهد الحاضر، وهي أن الاستعداد للحرب قد يمنع الحرب ويحقق السلام(١٦٩). ومعنى هذا أن العدو يهاب القوة أكثر مما يهاب الله لأنه لا يعرف الله، ولأن القوة شيء مادي يراه ويحدث في نفسه الاضطراب والقلق، ولكن الله لا يراه إلا العاقلون المؤمنون. ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ وفي هذه الآية كذلك إبراز لحقيقة ينبغي ألا تخفى على المسلمين، وهي أن أعداءكم كثيرون منهم من يعلن عداوته ومنهم من يكتمها. والمراد أن تكثير آلات الجهاد وأدواتها كما يرهب الأعداء الذين نعلم كونهم أعداء، كذلك يرهب الأعداء الذين لا نعلم كونهم أعداء. أما من هم الأعداء الذين لا نعلمهم:

١٦٦- الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ٧، ص ٥٢٣.

١٦٧- أحمد شلبي، **الجهاد في التفكير الإسلامي**، ص ٥١.

١٦٨- **مفاتيح الغيب**، ج ٧، ص ٥٢٤.

١٦٩- أحمد شلبي، **الجهاد في التفكير الإسلامي**، ص ٥١.

١- فقيل في الذين لا نعلمهم أنهم هم المنافقون، والمعنى أن تكثير آلات الغزو كما يوجب رهبة الكفار، فكذلك يوجب رهبة المنافقين، حيث إن المنافق من عادته أن يتربص ظهور الآفات ويحتال في إلقاء الإفساد والتفريق فيما بين المسلمين، فإذا شاهد كون المسلمين في غاية القوة خافهم وترك هذه الأفعال المذمومة.

٢- قيل المراد كفار الجن فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ فقال: "إنهم الجن" أي كفار الجن، وهو اختيار الطبري، وقيل: المراد كل من لا تعرف عداوته.

٣- أن المسلم كما يعاديه الكافر، فكذلك قد يعاديه المسلم أيضاً، فإذا كان قوي الحال كثير السلاح، فكما يخافه أعداؤه من الكفار، فكذلك يخافه كل من يعاديه مسلما كان أو كافراً(١٧٠).

ولأهمية الإنفاق في الاستعداد للحرب اختتمت الآية بالأمر بإعداد القوة والاستعدادات الحربية بالإنفاق على الحرب وفي كل مواطن الخير حيث قال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهو عام في الجهاد وفي سائر وجوه الخير. ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ يوف لكم أجره أي لا يضيع في الآخرة أجره ويعجل الله عوضه في الدنيا. ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي لا تنقصون من الثواب.

وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾(١٧١) إن التهلكة هنا معناها البخل بالقليل من الأنفس والأموال ويترتب على هذا البخل، التهلكة العامة، وضياع كل الأنفس والأموال، فالأمة التي لا تستعد ولا تضحي ببعض مالها وبعض رجالها تجلب الذلة والفناء لكل الرجال وكل الأموال(١٧٢) ولن تفلح أمة سيفها مع الجبان ومالُها عند البخيل. والإعداد للجهاد الوارد في الآية لا يقتصر على الإعداد المادي فقط بل لا بد وأن يشتمل على أنواع الإعداد الثلاثة وهي: إعداد معنوي ومادي وبشري.

أ: الإعداد المعنوي:

يشمل الإعداد المعنوي الإيمان بالمبادئ التي يقاتل المسلم من أجل انتشارها، وهي من أجل إعلاء كلمة الله والتي تشتمل على العدل والحرية والسلام. حيث إن من طبائع النفوس البشرية، وخصائص الجماعة الإنسانية أنها لا تتحرك إلا لغرض، أو على الأقل لا يثور قائد الجماعة إلا لتحقيق هدف،

١٧٠- **مفاتيح الغيب**، ج ٧، ص ٥٢٥.

١٧١- سورة البقرة، الآية: ١٩٥.

١٧٢- أحمد شلبي، **الجهاد في التفكير الإسلامي**، ص ٥٣.

هذا الغرض أو ذلك الهدف قد يكون مادياً وقد يكون معنوياً. وبقدر وضوح الهدف وأهميته وشدة لزومه، تكون قوة النضال وعنف الجهاد، أو بالأحرى يكون الفوز والغلب. هذا الهدف يجب أن يكون معنوياً خالصاً، لأنه إذا كان الفرد يحارب للوصول إلى هدف مادي، فقد يكون هذا الهدف سبباً من أسباب الهزيمة والفرار، أكثر من أن يكون سبباً من أسباب النصر والقرار، إذ ماذا تعنيه المادة بعد أن طار فكه أو بترت يده. كيف ينعم بالذهب النضار؟ بعد أن فقئت عينه وقطعت رجله، كيف ينتفع بالمادة وقد حشد للحرب ماله وولده فأتت عليهما؟ ماذا يعنيه نعيم الدنيا وقد أصبح محروماً من الاستمتاع بها، والتلذذ بحلوها هو وآله؟ ومع هذا فهو يحارب لأجل مادة مشكوك في الحصول عليها فيخسر مادة مؤكدة بين يديه، إذن الفرار الفرار، فعصفور في اليد خير من عشر فوق الشجرة.

أما إذا كان الهدف معنوياً، وما يحارب الفرد لأجله غرض لا يصل إليه إلا ببذل المادة، فليترفع عن المادة وعن القتال في سبيلها، وليبذل المادة لأجل هذا الهدف الأسمى الذي أشرب بدمه، بل ليبذل الحياة وكل ما فيها من مال ونفس وولد لأجل هذا المعنى السامي الذي غرسه القائد في ضميره، فأصبحت الحياة بجانب هذا الهدف لا تساوي فتيلاً ولا قطميرا.

والإسلام ما كان يمكنه أن يفتح هذه الفتوح من نهر التاج بأوربا إلى نهر الكنج بآسيا ويقوض الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الفارسية إلا إذا تغنى جنوده بهدف معنوي وهو الدين، هو الجنة، هو النعيم الأخروي، هو الثواب في الحياة الثانية هو الموت لكسب الحياة. لذلك وجدنا نابليون يحرك ضمائر جنوده ويثير كوامن نفوسهم بفخار فرنسا، ونصر فرنسا، وشرف فرنسا. وموسوليني ما كان ليملك زمام مواطنيه إلا بالتغني بمجد روما القديمة ومدنية روما العتيدة. وهتلر ما كان يمكنه أن يقود شعبه إلا بالتلويح لهم بإحياء العنصر الجرماني وبأن ألمانيا فوق الجميع. وما الفخار الفرنسي والمجد الروماني والعنصر الجرماني والدين الإسلامي إلا أهداف معنوية لا أثر للمادة فيها، هذه الأهداف المعنوية هي التي تحرك هذه الجماعات، فما كانت لترضى إلا بالنصر لتحقيقها أو بالموت دونها[١٧٣]. هذا الهدف أو ذاك الغرض الذي يصبو إليه قائد الجماعة يجب أن ينشره بين من يقودهم حتى يؤمنوا، وحتى يعوضهم هذا الغرض الأسمى عما يخسرونه في الحرب. ولا مانع من أن يعدد الأغراض حسب الجماعة التي يقودها فيؤمل ذلك بما يطمح إليه ويمنى ذلك بما يريد بشرط ألا يخرج عن حدود الدائرة الكبرى، والهدف الأسمى الذي رسمه للجماعة، وقادها لأجل تحقيقه، وإلا كان ذلك وبالاً عليه قبل نجاحه وبعد نجاحه

١٧٣- عبد الدايم أبو العطاء، **الفلسفة السياسية للإسلام**، مطبعة دار التأليف، ط ٢، ١٩٥٥م، ص ٥٨- ٦٠.

على السواء. وهذا أمر قد كفله الإسلام وعمل به عمر رضي الله عنه عندما جعل مهمة الأمراء وقواد الجيش تعلم الناس أمور دينهم. فهذا كتاب عمر إلى أحد ولاته: سر باسم الله، فقاتل في سبيل الله من كفر بالله، فإذا لقيتم عدوكم من المشركين فادعوهم إلى ثلاث خصال: ادعوهم إلى الإسلام، فإن أسلموا فاختاروا دارهم فعليهم في أموالهم الزكاة، وليس لهم من فيء المسلمين نصيب وإن اختاروا أن يكونوا معكم ـ أي في عداد المجاهدين ـ فلهم مثل الذي لكم ـ أي من العطاء ـ وعليهم مثل الذي عليكم. هذا الهدف يجب أن يستميت القائد والجندي على السواء في الوصول إليه ويناضلان بقوة وبأس وشجاعة قلب لتحقيقه، بمعنى أنه يجب أن يعتقد أنه لن تستقيم له الحياة ولأحفاده من بعده ولبني جنسه إلا إذا حقق هذا الهدف، وعلى ذلك فعندما يذهب إلى الحرب فإما إلى نصر مؤكد ففوز وراحة وتحقيق لغرضه، وإما إلى موت يحفظ للنفس كرامتها.

ومن الإعداد المعنوي الابتعاد عن المعاصي عملا بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾(١٧٤) ومن الإعداد المعنوي توفير الكرامة للمواطن المسلم في دولة الإسلام وهذا ما يدعوه لأن يقاتل لتثبيت أركان هذه الدولة، وامتداد ظلها في الآفاق. وعند وضوح الهدف وتأكده من أنه إذا عاش عاش سعيدا في عزة وكرامة، وإن مات فالجنة ذات الدرجات العليا فيها الراحة والسعادة، إذا ليحب الموت أكثر من حبه للحياة، ومن أحب الموت فقد وهبت له الحياة(١٧٥). فإما النصر وإما الشهادة "إنها لإحدى الحسنيين". كما يجب على القائد أن يؤكد لجنوده النصر ويقربه منهم وأنهم واثقون من النصر الذي وعدوا به ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر رغم قلة عددهم وكثرة عدد عدوهم: "إن الله وعده العير أو النفير والعير قد مضت فليكن النفير والنصر وأن الله لن يخلف وعده"، فعلى القائد أن يرغب جنوده في النصر وأنه قريب منهم وليس صعب المنال حتى يسهل على الجنود طلبه والظفر به.

ب: الإعداد المادي:

ويشمل هذا الإعداد كل أدوات الحرب من سلاح وعتاد وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يفعلون ذلك، فهذا عمر رضي الله عنه كان يحمل في العام الواحد على أربعين ألف بعير(١٧٦) وهذا عدا ما

١٧٤- سورة محمد، الآية: ٧.

١٧٥- قالها أبو بكر الصديق لخالد بن الوليد حين بعثه لحرب الردة: أحمد زكي صفوت، **جمهرة خطب العرب في عصوره الزاهرة**، طبعة عالم المعرفة، ص ٣٤٣.

١٧٦- الإمام مالك، **الموطأ**، دار إحياء التراث العربي، ج ٢، ص ٤٦٤.

يحمل عليه من الخيل والبغال وغير ذلك. وكان عمر يتخذ احتياطا من السلاح والعتاد الحربي، فقد اتخذ من مصر خيلاً على قدره من فضول أموال المسلمين عدة لما يعرض، فكان من ذلك في الكوفة أربعة آلاف فرس يشتيها في قيلة قصر الكوفة، ويربعها فيما بين الفرات والكوفة مما يلي العاقول فسمته العجم "آخر الشاهمان" يعنون معلف الأمراء، وكان قيمه عليها سليمان بن ربيعة الباهلي من أهل الكوفة يجريها كل يوم، واتخذ بالبصرة نحواً منها وقيمه عليها جزء بن معاوية وفي كل مصر من الأمصار على قدره(١٧٧). ومن الإعداد المادي للجهاد إيجاد اقتصاد قوي ينهض بنفقات الحرب، وقد أشار عمر إلى ذلك عندما قال: "لأن أموت بين شعبتي رحل أضرب في الأرض أبتغي من فضل الله أحب إليّ من أن أقتل مجاهداً في سبيل الله"(١٧٨).

ج: الإعداد البشري:

حيث يجب تهيئته وتدريب الأعداد الكافية للجهاد، ويسعى كل جهده أن لا يتناقص عدد المجاهدين، لذلك رفض الخليفة العادل عمر بن الخطاب تقسيم أراضي سواد العراق بين المحاربين لئلا يركن المحاربون إلى الأرض الخصبة والجني الطيب ويتركوا الجهاد. كما لا يجب أن يتوجه اهتمام القيادة العسكرية في الدولة الإسلامية إلى كمية الجند اللازمة للقتال فحسب، بل يجب أيضاً الاهتمام بنوعية هؤلاء الجنود من حيث التدريب على تحمل المصاعب والمشاق، والتمكن من معرفة العلوم العسكرية الحديثة والمتطورة، بل يجب أن تكون القوات المسلحة دائماً في تطوير وتحديث مثلما يفعل جند الأعداء. فالأعداد الغفيرة بلا تدريب ولا علم غثاء كغثاء السيل(١٧٩) لا يبالي الله بهم. وسنة الله في خلقه أن الانتصار للحق الذي تسانده قوة لا للحق الذي يؤمن به العجزة والمتخاذلون. إذاً فالغلب للأقوى، والفوز للأصلد، هذه سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

فالنضال بين الحقوق وجهاد الجنود بالحجج والآراء، ولكن متى تنتهي الألفاظ، والكلام من الكلام؟ ومتى تنفد الحجج والآراء؟ وما هي إلا سبيل يتمحك به القوى لاستلاب الضعيف؟ لا لأنه يريد أن يقنعه أو يشرع عمله ويحقه، ولكنه يريد أن يسبر مقدار غضب الآخر وقوته، فإن تناه بالحجة

١٧٧- السرخسي، **المبسوط**، دار المعرفة، ٣٠/ ٢٤٥.

١٧٨- محمد عبد الحي الكتاني، **التراتيب الإدارية**، طبعة دار الأرقم، ج ١، ص ٣٣٢.

١٧٩- وقد وجدنا الجيش الأمريكي أقل من عدد القوات العراقية وسحق القوات العراقية على أرضها وفي ديارها وذلك بسبب التقدم العلمي والأخذ بأكثر أسباب النصر التي لا تتخلف ـ أما جيش العراق رغم بسالة جنوده وشجاعتهم النادرة إلا أنهم لم تكن لهم قيادة حربية عالمة بفنون الحرب الحديثة وتحقق في القيادة العسكرية لهم كل عوامل الانكسار، علاوة على الخيانة والموالاة للعدو والتي كانت في عدد من قادة وجنود الجيش العراقي.

الدامغة والبرهان الساطع والدليل الدامغ فقد أمن جانبه واطمأن على اغتياله، إذ عرف كل ما في جرابه، وإن تناه بالقوة والصفع، فالاحتكام إلى القوة، وهي القول الفصل.

فالحقوق تندرج تحت نوعين:

أ- الحق الطبعي: وهو الذي تخلقه القوة، وتبرهن على أحقيته القوة أو بعبارة أخرى المحق في الطلب هو القادر على تنفيذه، فالقوي يبيد الضعيف لأنه أولى منه بالبقاء حيث هناك سبب قوي يجعله أقدر على البقاء منه ألا وهو القوة(١٨٠). إذن هذا الحق الطبعي هو والقوة لفظان مترادفان.

ب- الحق الإنساني: وهو الذي يخضع لتقاليد الشعب وخصائصه وعاداته وديانته، ولهذا تجده يختلف باختلاف الشعوب والأقاليم والديانات والأزمان. والحق بنوعيه حق ما دامت القوة تؤيده، فإذا ما تخلت القوة عنه أصبح باطلاً، أي لا قيمة له(١٨١). وقد أثبتت الحرب الأمريكية على العراق عام ٢٠٠٣م أن الحق الوحيد الموجود في زماننا هو حق القوى. وقد أثبتت حرب الخليج وما تلاها من سباق التسليح الجديد في الشرق الأوسط أن "الحق" الدولي الوحيد هو "حق" الأقوى.

هل الدين والقوة يجتمعان؟ كيف يكون شعار الدين القوة وهو دائماً فكرة السلام؟ نعم! لأن الإسلام كان منطقياً وطبعياً في تفكيره، ولا يمكن أن يكون غير ذلك. فقد عرف أن المبادئ الإنسانية الثلاثة، وهي العدل والحرية والمساواة، لا يمكن أن تظلل المجتمع الإنساني إلا إذا مهدت لها القوة، كما لا يمكن أن تبقى إلا إذا حمتها القوة(١٨٢). وعناصر القوة في البلاد العربية والإسلامية عديدة لو استغلت هذه العناصر استغلالا حسناً لساد المسلمون الأرض لكنهم لم يحسنوا استغلالها فهم في ضعف وهوان وذلة ـ نسأل الله الخلاص منها قريباً ـ. وهذه عناصر القوة للأمة الإسلامية كما كتبها مفكر غير مسلم ليحذر بها قومه من صحوة المسلمين وأنهم سيمثلون قوة الغد العالمية حيث يرى أن المسلمين يملكون من مصادر القوة ما لا يملكه أتباع دين آخر على وجه الأرض:

أولاً: يسكنون منطقة جغرافية تتحكم في العالم كله: "إن أهمية المنطقة الإسلامية في نظام التجارة العالمية في ذلك الوقت كانت واضحة وحقيقة واقعة، فحكامها كانوا يستطيعون التحكم في الأسعار عن طريق رفع رسوم المرور والجمارك، بل كان في مقدورهم قطع الطريق كلية، إذا بدا لهم أن ذلك فيه فائدة

١٨٠- **الفلسفة السياسية للإسلام**، ص ٨٥-٨٦.

١٨١- روجيه جارودي، **حفار والقبور ـ الحضارة التي حفرت للإنسانية قبرها**، ترجمة عزه صبحي، دار الشروق، ص ٤٠.

١٨٢- عبد الدائم أبو العطا، **الفلسفة السياسية للإسلام**، ص ٨٨.

لهم، أي رغبوا فيه اعتمادا على أيّ سبب، ومن هنا ظهرت الأطماع في السيطرة على هذه المنطقة ... ولم يتغير شيء من هذا بعد دخول الإسلام. فقد أصبح قدح الزند في المجالات السياسية والتجارية في الشرق الأدنى في يد الدولة الإسلامية الجديدة التي مدت سلطانها على المنطقة جغرافياً وثقافياً(١٨٣). وكانت السيطرة على المنطقة من الأسباب الرئيسية للحملات الصليبية: "فقد حمل الصليبيون معهم فكرة مدروسة، مفادها أن أهمية السيطرة على منطقة غرب آسيا لا يمكن أن تقدر، إذ هي نقطة اتصال بين الغرب والشرق الأقصى، وثبتت صحة هذه الفكرة لحكام تلك المنطقة منذ قرون، وما زالت حتى اليوم"(١٨٤)، يشهد بذلك الصراع القائم بين القوى العظمى المعاصرة للسيطرة على هذه المنطقة والذي كان منذ عقود، واليوم أصبح الاستعمار الجماعي هو الصيغة الجديدة لاستعمار الغرب المتقدم لبلاد العرب والمسلمين وتحالفاتهم مع أمريكا لاحتلال العراق خير شاهد.

ثانياً: لديهم خصوبة بشرية، تمكنهم من التفوق على غيرهم إن هم أحسنوا إعدادها وتوجيهها: إذ تشير ظاهرة نمو السكان في أقطار الشرق الإسلامي إلى احتمال وقوع هزة في ميزان القوى بين الشرق والغرب، فقد دلت الدراسات على أن لدى سكّان هذه المنطقة خصوبة بشرية تفوق نسبتها ما لدى الشعوب الأوروبية، وسوف تمكن الزيادة في الإنتاج البشري الشرق على نقل السلطة في مدة لا تتجاوز بضعة عقود ـ أي عشرات قليلة من السنين ـ وسوف ينجح في ذلك نجاحاً لا نرى من أبعاده اليوم إلا النزر اليسير.

ويعرض المؤلف مثالاً لمؤشر زيادة السكّان في مصر فيقول: وسيصبح في مصر في مدة ٩٦٨ سنة ـ أي أقل من ألف عام بقليل ـ أمة تعدادها ٩٧٣ ملياراً من البشر، أي أنها سوف تنمو بشرياً إلى درجة لا تمكنها فقط من استعمار الكرة الأرضية، بل من استعمار أعداد من الكواكب السيارة الأخرى(١٨٥).

ثالثاً: يملكون من الثروات والمواد الخام ما يستطيعون به بناء قوة صناعية تضارع أرقى الصناعات العالمية ـ إن لم تفقها ـ وسوف تزداد هذه الثروات في وقت تقل فيه في البلاد الأخرى، مما يجعلهم يتحكمون في توجيه الصناعة في العالم: "يوم يقل الإنتاج الغزير لهذا البترول، الذي يغزو أسواق العالم المتحفظة جداً بعد اكتشاف باقي حقول الحزام البترولي في غرب آسيا مركزاً دولياً هاماً، وسيصل إنتاجه رقماً لم يعرف

١٨٣- باول شمنز، **الإسلام قوة الغد العالمية**، ترجمة: محمد شامة، مكتبة وهبة، ١٩٧٤م، ص ٣٤.

١٨٤- المرجع السابق، ص ٣٥-٣٦.

١٨٥- المرجع السابق، ص ٢٠٢- ٢٠٣.

بعد، ولا يستطيع الخبراء التكهّن به، لأنه قد يفوق كل تقدير..." إلى أن يقول: يجب ألا نغفل عدالة هذا التغيير وتأثيره اقتصاديا في مركز العالم الإسلامي على مسرح التبادل التجاري العالمي(١٨٦).

رابعاً: الإسلام: ذلك الدين الذي له قوة سحرية على جميع الأجناس البشرية المختلفة تحت راية واحدة، بعد إزالة الشعور بالتفرقة العنصرية من نفوسهم، وله من الطاقة الروحية ما يدفع المؤمن به على الدفاع عن أرضه وثرواته بكل ما يملك مسترخصاً في سبيل ذلك كل شيء حتى روحه، كما يحرص على التضحية بها فداء لأوطان الإسلام. إن اتجاه المسلمين نحو مكة ـ وطن الإسلام ـ عامل من أهم العوامل في تقوية وحدة الاتجاه الداخلي بين المسلمين، وأسلوب يضفي على جميع نظم الحياة في المجتمع الإسلامي طابع الوحدة، وصفة التماسك(١٨٧).

ويقول: "ويتضح أن قوة القرآن في جمع شمل المسلمين لم يصبها الوهن، ولم تنجح الأحداث التي مرت على المسلمين في القرون الأخيرة في زعزعة ثقتهم به، كقوة روحية تستطيع أن تجمع التيارات المختلفة التي نادى بها رجال يعدون من الصفوف الأولى التي صارعت الاستعمار الغربي على الصعيد السياسي، وكيف جذبت الأحداث الإسلامية الزعماء إلى التكاتف والتساند ضد الغرب: إن الروح الإسلامية ما زالت تسيطر على تفكير القادة وعواطفهم، وستظل كذلك ما دامت هناك شعوب إسلامية ربطت مصيرها بتعاليم الإسلام، واعتقدت أن الرباط الجامع بين أجناسها المختلفة هو الإسلام، إن روح التعاطف والتواد بين المسلمين هو السبب الرئيسي في تجميع القوى الوطنية على طريق القومية الإسلامية(١٨٨). ويرى المؤلف في وضوح أنه من الممكن للمسلمين أن يتقدموا في العلم والتكنولوجيا كما تقدم الأوربيون. وهم عندئذ ليسوا في حاجة إلى رباط يجمعهم سوى الإسلام وهو قائم فعلاً لم يفقدوه بعد، حيث يقول: "لماذا لا يتعلم العالم الإسلامي ما تعلمنا في مجال التكنولوجيا؟ وفي مقابل هذا: سوف يكون من الصعب علينا استعادة التعاليم الروحية ـ وهي من العوامل الأساسية لوحدة أوربا ـ التي فقدتها المسيحية بينما لم يزل الإسلام يحافظ عليها"(١٨٩).

١٨٦- المرجع السابق، ص ٢١٨.

١٨٧- المرجع السابق، ص ٩٢.

١٨٨- المرجع السابق، ص ١٦٠- ١٦١.

١٨٩- المرجع السابق، ص ٣٣٧.

ب- **من عوامل الانكسار: ترك المسلمين الأخذ بأسباب القوة:**

إن غرض المؤلف من هذا الكتاب ليس ليعرف المسلمون قوتهم فيستخدمونها ولكن غرضه إنذار أوربا بخطر القوة النامية الجديدة في الشعوب الإسلامية ودعوتها إلى العمل في حزم لرد خطر هذه القوة ووقف نموها، كي تبقى أوربا ذات سيطرة سياسية واقتصادية. ودرء هذا الخطر وهذه القوة النامية والمتزايدة يتحقق بوسيلتين: أولاهما: إضعاف علاقة المسلمين بإسلامهم. وثانيهما: توجيه حملات تشويهية ضد الإسلام، وقد عمل الغرب ما نصح به هذا المؤلف فهذه حملات التشويه للإسلام في وسائل إعلامهم لا تخفى على أحد.

وإنك لتجد المستعمرين ـ الحمر والبيض ـ رغم الخلاف بينهم متفقين على شيء واحد، وهو ضرب الإسلام وخنق كل الظروف، وإجهاض كل الملابسات التي تمده بأسباب القوة، فتعاونوا فيما بينهم على خلق إسرائيل للحيلولة دون سيطرة المسلمين على هذه المنطقة الحساسة من العالم، وهم يتسابقون ـ بأساليب مختلفة ـ لسلب ثروات هذه الأمة، وفي الوقت نفسه انطلقت ـ وما زالت ـ السهام من كل جانب للقضاء على الإسلام كعقيدة فأبعدوه عن الحياة السياسية والاقتصادية وحرموا عليه التواجد في ساحة القضاء إلا في الأحوال الشخصية. فهل يدرك المسلمون قيمة إسلامهم؟ هل يقرأ المسلمون قرآنهم ويعملون بما فيه قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾(١٩٠)، وقال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾(١٩١).

حقا فالإسلام هو القوة، والإسلام ـ لكل ما تقدم ـ تعهد القوة وحافظ عليها ونمّاها فكان:

١- قويا في القول: حتى إن بعض ألفاظ القرآن عندما سمعها بعض الأعراب قبل إسلامه وصفها بأنها "سيل ينحدر من عل".

٢- قويا في التشريع: فكان منطقياً في تفكيره، داعيا إلى الحرية.

٣- قويا في حماية الدولة والدين: فشرع الحرب.

٤- قوياً في المجتمع: فشرع علائقه الاقتصادية والاجتماعية وباشر تنفيذها إن طوعا وإن كرها.

٥- قويا في الدين: فكان وسيلة لإنهاض المجتمع.

١٩٠- سورة آل عمران، الآية: ٢٨.

١٩١- سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

٦- قويا في تقدم الإنسانية وتحضر العالم: فأوجب العمل والاختراع والغِلاب.

٧- قويا في السياسة: فشرع النضال والجلاد حتى يبقى الأصلح ويحيا النافع.

إذا كان الإسلام قد أعد لنا كل هذه القوة، والتي امتن الله بها علينا فلماذا لا ننتصر على الأعداء؟

الجواب: لأننا لا نعمل بهذه القوة، بل يعمل بعض المسئولين في بلادنا على تفتيتها وتبديدها، ويوم أن نأخذ بكل أسباب القوة التي أعطانا الله إياها، ستكون لنا السيادة في الأرض، وسننشر العدل والخير والرفاهية لكل البشر على وجه الأرض، ألم يقل الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ﴾(١٩٢).

لقد تكالب الكفر علينا فماذا ننتظر؟ لقد أخذوا معظم ما في أيدينا فبمن ننتصر؟ إن قلتم نرفع شكوى للأمم المتحدة، فكم رفعنا من شكاوى، فماذا فعلت الأمم المتحدة؟ وحتى عندما يصدر قرار من الأمم المتحدة ماذا نفعل به؟ هل ينفذ؟ كم من قرار في الأمم المتحدة لصالح قضايانا العادلة؟ هل طبق؟!! إن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، فلننتصر بالله، ولنتوكل على الله، إنه لا يجوز لنا أن نرتمي في أحضان الشرق ولا الغرب، ولا نستجدي أحداً منهم طلبا لمال أو نصر، ولنتوكل على الله واثقين بنصره وعونه، وعلينا جميعا أن نساعد إخواننا المجاهدين الذين نعلم إخلاصهم في جهادهم من أجل حريتهم واستقلال بلادهم. علينا جميعا أن نوقن أن قدرة الله لا تحد ولا تقف عن حد، ومن ظن أن لقدرة الله حدودا فذلك كفر منه وجحود. فعلينا أن ننتصر بالله وحده، ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾(١٩٣).

العامل الخامس من عوامل الانكسار: (أ) حب الدنيا ـ ارتكاب المعاصي:

أولا: حب الدنيا:

١- قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾(١٩٤). ذكرت الآية الأمور الداعية إلى التقاعس عن الجهاد في سبيل الله وعدم البراءة من الكفار ومخالطتهم، وهي حب الآباء والأبناء والزوجات والعشيرة،

١٩٢- سورة آل عمران، الآية: ١٢٦.

١٩٣- سورة النور، الآية: ٥٥.

١٩٤- سورة التوبة، الآية: ٢٤.

وهم من يعاشرون الرجل وهم أهله الأدنون، وأموال اقترفتموها أي اكتسبتموها، وأصل الاقتراف اقتطاع الشيء عن مكانه إلى غيره، ومساكن ترضونها أي مساكن تعجبكم الإقامة فيها وهذه أمور أربعة:

١- مخالطة الأقارب وذكرهم على التفصيل، هم: الآباء والأبناء والأخوات و الأزواج ثم ذكر الباقي بلفظ واحد يتناول الكل وهو لفظ العشيرة.

٢- الميل إلى إمساك الأموال المكتسبة.

٣- الرغبة في تحصيل الأموال بالتجارة.

٤- الرغبة في المساكن(١٩٥).

ثم بيّن أن رعاية الدين خير من رعاية جملة هذه الأمور. وبينت الآية أنه يجب تحمل هذه المضار الدنيوية ليبقى الدين سليما، وذكرت أنه إن كانت رعاية هذه المصالح الدنيوية عندكم أولى من طاعة الله ورسوله، ومن الجهاد في سبيل الله، فتربصوا ـ انتظروا ـ بما تحبون حتى يأتي الله بأمره أي بعقوبة آجلة أو عاجلة. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي الخارجين عن طاعته إلى معصيته، وهذا أيضاً تهديد، وهذه الآية تدل على أنه إذا وقع التعارض بين مصلحة واحدة من مصالح الدين وبين جميع مهمات الدنيا وجب على المسلم ترجيح الدين على الدنيا. وقال الرازي: اعلم أن الله تعالى لما أوجب الإعراض عن مخالطة الآباء والأبناء والإخوان والعشائر، وعن الأموال والتجارات والمساكن رعاية لمصالح الدين، ولما علم الله تعالى أن هذا يشق جداً على النفوس والقلوب، ذكر ما يدل على أن من ترك الدنيا لأجل الدين فإنه يوصله إلى مطلوبه من الدنيا أيضاً. وضرب تعالى لهذا مثلا، وذلك أن عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم في واقعة حنين كانوا في غاية الكثرة والقوة، فلما أعجبوا بكثرتهم صاروا منهزمين ثم في حال الانهزام لما تضرعوا إلى الله قوّاهم حتى هزموا عسكر الكفار، قال تعالى: ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ٢٥ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾(١٩٦).

وذلك يدل على أن الإنسان متى اعتمد على الدنيا فاته الدين والدنيا، ومتى أطاع الله ورجح الدين على الدنيا آتاه الله الدين والدنيا على أحسن الوجوه، فكان ذكر الآيات التالية تسلية لأولئك الذين

١٩٥- **تفسير القرطبي**، ج ٤، ص ٣٠٢٢.

١٩٦- سورة التوبة، الآيات: ٢٥-٢٧.

أمرهم الله بمقاطعة الآباء والأبناء والأموال والمساكن، لأجل مصلحة الدين وتصبيراً لهم عليها، ووعداً لهم على سبيل الرمز بأنهم إن فعلوا ذلك فالله تعالى يوصلهم إلى أقاربهم وأموالهم ومساكنهم على أحسن الوجوه، هذا تقرير النظم وهو في غاية الحسن(١٩٧).

٢- قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ٨٦ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴾(١٩٨). ومعنى الآية أنه متى نزلت آية مشتملة على الأمر بالإيمان وبالجهاد مع الرسول صلى الله عليه وسلم استأذن أولوا الثروة والقوة منهم في التخلف عن الغزو، وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذرنا نكن مع القاعدين أي مع الضعفاء من الناس والساكنين في البلدة. إن الغني عنده ملذات يستمتع بها أيتركها من أجل الجهاد؟ إنما يتركها لو كان الإيمان عنده أغلى كثيراً من مغريات الدنيا، لذلك ختم الآية، بقوله: ﴿فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴾ أي لا يفهمون حكمة الله في الأمر بالجهاد. إن المترفين والمنعمين من قديم الزمان لا يدافعون عن الأوطان ولا يناصرون الحقوق. وهذا يقتضينا معرفة معنى الترف ونتيجته في التقاعس عن الجهاد. معنى الترف في اللغة: الترف التنعيم، والترفة النعمة، والتتريف حسن الغذاء، وصبي مترف إذا كان منعم البدن مدللا. والمترف: الذي قد أبطرته النعمة وسعة العيش، وأترفته النعمة أي أطغته، والمترف: المتوسع في ملاذ الدنيا وشهواتها(١٩٩). قال تعالى: ﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ ﴾ أي أولوا الترفة وأراد رؤساءها وقادة الشر فيها. قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴾(٢٠٠) أي جروا وراء شهواتهم وتمادوا في الترف فأبطرهم وأطغاهم(٢٠١). والتنعيم وحده أو الثراء وحده لا حرج فيه لكن الحرج كل الحرج، والجرم كل الجرم هو ما يدعو إليه هذا التنعيم أو الثراء، واتباع ما يدعو إليه وهو نتائج الترف المذكورة في النصوص القرآنية، قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾(٢٠٢). فالأغنياء المترفون الذين شغلتهم أموالهم وأولادهم وأنفسهم عن

١٩٧- **مفاتيح الغيب**، ج ٧، ص ٢٥٠.

١٩٨- سورة التوبة، الآيتان: ٨٦-٨٧.

١٩٩- ابن منظور، **لسان العرب**، دار الحديث، المجلد الأول، ص ٦٠٥، حرف التاء.

٢٠٠- سورة هود، الآية: ١٦٦.

٢٠١- إبراهيم محمد عبد الفتاح، **القاموس القويم للقرآن الكريم**، مجمع البحوث الإسلامية، مصر، ج ١، ص ٩٩.

٢٠٢- سورة الإسراء، الآية: ١٦.

ربهم وتعلقوا بالحياة الدنيا وتناسوا الخير الذي وعد الله به عباده المخلصين ورضوا بالتخلف عن الواجب وانصرفت نفوسهم عن الخير، إذا دعوا إلى الجهاد استأذنوا في التخلف واعتذروا باعتذارات باطلة راضين لأنفسهم أن يكون شأنهم شأن أرباب الضعف من النساء والصبية والعجزة، وقد أعمى الله بصيرتهم وختم على قلوبهم فغفلوا عن سوء عاقبتهم.

٣- قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾(٢٠٣).

قال في الآية ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ المؤاخذة والإثم في تخلفهم عن الجهاد، والمعنى: أن هؤلاء الأغنياء الذين استأذنوك في التخلف ـ عن الجهاد ـ سبيل الله عليهم لازم وتكليفه عليهم بالذهاب إلى الغزو متوجه، ولا عذر لهم البتة في التخلف. ما موقع قوله تعالى: "رضوا"؟ قلنا: كأنه استئناف، كأنه قيل: ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء؟ فقيل: رضوا بالدناءة والضعة والانتظام في جملة الخوالف. "وطبع على قلوبهم" أي أن السبب في نفرتهم عن الجهاد هو أن الله طبع على قلوبهم، فلأجل ذلك الطبع لا يعلمون ما في الجهاد من منافع الدين والدنيا.

٤- قال تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ...﴾(٢٠٤).

ومعنى الآية "فصل" أي خرج طالوت بالجنود، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ ومعنى هذا الابتلاء أنه اختبار لهم، فمن ظهرت طاعته في ترك الماء علم أنه مطيع فيما عدا ذلك، ومن غلبته شهوته ـ في شرب الماء ـ وعصى الأمر فهو في العصيان في الشدائد أحرى، فروي أنهم أتوا النهر وقد نالهم عطش وهو في غاية العذوبة والحسن. ولذلك رخص للمطيعين في الغرفة ليرتفع عنهم أذى العطش بعض الارتفاع وليكسروا نزاع النفس في هذه الحال، وبين أن الغرفة كافة ضرر العطش عند الحزمة الصابرة على شظف العيش، الذين همهم في غير الرفاهية. وقال بعض من يتعاطى غوامض المعاني: هذه الآية مثل ضربه الله للدنيا فشبهها الله بالنهر، والشارب منه بالمائل إليها والمستكثر منها، والتارك لشربه بالمنحرف عنها والزاهد فيها، والمغترف بيده غرفة بالآخذ منها قدر الحاجة، وأحوال الثلاثة عند الله مختلفة. قلت: ما أحسن هذا لولا ما فيه من التحريف في التأويل والخروج عن الظاهر، لكن معناه صحيح في غير هذا(٢٠٥).

٢٠٣- سورة التوبة، الآية: ٩٣.

٢٠٤- سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

٢٠٥- **تفسير القرطبي**، ج ١، ص ١١٦٢.

ومن السنة: أخرج أحمد في **مسنده** عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق، كما تداعى الأكلة على قصعتها" قالوا يا رسول الله! أمن قلة بنا يومئذ؟! قال: أنتم يومئذ كثير، ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل، ينزع الله المهابة من قلوب عدوكم ويجعل في قلوبكم الوهن، قالوا: وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت"(٢٠٦). ذكر الحديث أهم سبب من أسباب الانكسار أمام العدو وهو حب الدنيا وكراهية الموت. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أخذ الناس بالدينار والدرهم وتبايعوا بالعينة واتبعوا أذناب البقر وتركوا الجهاد في سبيل الله أنزل الله بلاءً لا يرفع حتى يراجعوا دينهم"(٢٠٧). وفي رواية أخرى: "إذا تبايعتم بالعينة واتبعتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم". ففي الحديث وضح الرسول صلى الله عليه وسلم أن ترك الجهاد من أسباب نزول البلاء، ومن الذل الانكسار والهزيمة أمام الأعداء. يقول ابن خلدون متحدثا عن السبب في التقاعس عن الجهاد ونصرة الحق: "وإذا اتخذت الدعة والراحة مألفاً وخلقاً، وصارت طبيعة وجبلة، وتربت الأجيال الحادثة في نضارة العيش ومهاد الترف والدعة، وذلك فرق بينهم وبين عوائد البداوة وخلق التوحش التي حصل بها الملك، ولا يفرق بينهم وبين السوقة من الحضر إلا في الثقافة والشارة فتضعف حمايتهم ويذهب بأسهم وتضعف شوكتهم، فتلبس الدولة بذلك ثياب الهرم ولا يزالون في حالات الترف والحضارة والسكون والدعة في جميع أحوالهم وينغمسون فيها، وهم بذلك يبعدون عن البداوة والخشونة وينسلخون عنها شيئاً فشيئاً وينسون خلق البسالة التي كانت بها الحماية والمدافعة حتى يعودوا عيالا على حامية أخرى إن كانت لهم، إلى أن يتخذ صاحب الدولة أنصاراً وشيعة من غير جلدتهم ممن تعودوا الخشونة فيتخذهم جنداً يكونون أصبر على الحرب وأقدر على معاناة الشدائد من الجوع والشظف، ويكون ذلك دواء للدولة من الهرم الذي عساه أن يطرقها حتى يأذن الله فيها بأمره"(٢٠٨). ويقول ابن خلدون عن أطوار الدولة: "الطور الخامس طور الإسراف والتبذير ويكون صاحب الدولة في هذا الطور متلفاً لما جمع أولوه في سبيل الشهوات والملاذ والكرم على بطانته وفي مجالسه، واصطناع أخدان السوء وخضراء الدمن وتقليدهم عظيمات الأمور التي

٢٠٦- **سنن أبي داود**، ج ٤، ص ١١١، و**مسند الإمام أحمد**، ج ٥، ص ٢٧٨ وقيل: الحديث ضعيف لأن فيه مجهولاً وصححه الألباني.

٢٠٧- **سنن أبي داود**، ج ٣، ص ٧٤٠.

٢٠٨- **مقدمة ابن خلدون**، الفصل الثالث عشر في بابه إذا تحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد، ص ١٦٩.

لا يستقلون بحملها ولا يعرفون ما يأتون ويذرون منها مستفسد الكبار الأولياء من قومه وصنائع سلفه حتى يضغطوا عليه ويتخاذلوا عن نصرته مضيعاً من جنده بما أنفق من أعطياتهم في شهواته، وحجب عنهم وجه مباشرته وتفقده فيكون مخربا لما كان سلفه يؤسسون، وهادماً لما كانوا يبنون، وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهرم ويستولى عليها المرض المزمن الذي لا تكاد تخلص منه ولا يكون لها معه برء إلى أن تنقرض والله خير الوارثين"(٢٠٩).

أما جوستاف لوبون فيقول: "والأمة بعد أن تبلغ تلك الدرجة من الحضارة والقوة حيث تطمئن إلى أنها لا تكون عرضة لهجوم جيرانها، تبدأ بالتمتع بنعم السلم والترف التي يمن الثراء بها عليها، فتذبل المزايا الحربية وتوجب زيادة الحضارة حدوث احتياجات جديدة وتنمو الأثرة وأبناء الوطن إذ لا يبقى بذلك من مثل عال غير التمتع السريع بالأموال التي تحصل على عجل يتركون للدولة أمر إدارة الشئون العامة فلا يلبثون أن يفقدوا جميع الصفات التي كانت سبب عظمة دولتهم، وهنالك يغير على الأمة الكثيرة التمدن جيران من ا لبرابرة أو من أشباه البرابرة ذوو احتياجات ضعيفة إلى الغاية مع مثل عال جداً ثم يقيم هؤلاء حضارة جديدة بإنقاض الحضارة التي قلبوها رأساً على عقب، وعلى هذه الصورة هدم البرابرة إمبراطورية الرومان وهدم العرب إمبراطورية الفرس"(٢١٠).

ب- من عوامل الانتصار: الزهد في الدنيا:

لماذا كان حب الدنيا من أهم أسباب الانكسار أمام الأعداء؟ لأن الجهاد يكون بالنفس والمال، والمحب للدنيا يبخل بالنفس والمال، وبذلك يتقاعس عن نصرة الحق والجهاد بالنفس والمال، وقالوا: "لن تفلح أمة سيفها مع الجبان، ومالها عند البخيل، والجبان والبخيل محبان للدنيا". كما أن من كان محبا للدنيا فإنه يؤثرها على الآخرة، ومن آثر الحياة الدنيا على الآخرة ظلم وبخل ومنع الحقوق، كما قد يؤدي به حب الدنيا إلى سفك الدماء وتقطيع الأرحام. جاء في الكتب السابقة: حب الدنيا رأس كل خطيئة. وفي الحديث، قال صلى الله عليه وسلم: "فو الله لا الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم"(٢١١). إن من لم يقهر نفسه لا يقهر عدوه، والمحب للدنيا لا يقهر نفسه، كما أن المحب للدنيا إذا ما كتب الله له النصر فإنه سيظلم

٢٠٩- المرجع السابق، الفصل السابع عشر في أطوار الدولة لإمبراطورية الفرس، ص ١٧٦١.

٢١٠- جوستاف لوبون، **السنن النفسية لتطور الأمم**، ترجمة: عادل زعتر، ص ١٧٢-١٧٣.

٢١١- **صحيح البخاري**، كتاب الجزية، باب الجزية والموادعة، برقم: ٣١٥٨.

ويفسد في الأرض، وسنة الله أن من يمكن في الأرض هو الذي يعمر ويبني ويعمل على إسعاد البشر على الأرض. وسنة الله أن من يعمر في الأرض وينشر الخير والعدل تكون له الغلبة، أما الأمة التي يكثر فيها الفساد ويقل العمران فإنها تزول دولتها، والتي تعمر تكون لها السيادة بغض النظر عن دينها، لأنها عملت بقوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي طلب منكم عمارتها. فمن أحب الدنيا لا يصلح لقيادة البشرية ولا لحكم غيره ولا حتى حكم نفسه فكيف ينتصر في حرب ليصير إليه الأمر ليحكم العباد والبلاد كما يرى، وهو لا يرى إلا الدنيا وما تميل إليه نفسه وهواه. لذلك، كان الجند المسلمون في الماضي ـ وبعضهم في الحاضر ـ كما ثبت من تاريخ المعارك والحروب أكثر الجند سعياً إلى الموت في سبيل الله، حيث كانوا يندفعون إلى القتال في شدة وصلابة وعنف يواجهون الشدائد بقلوب ثابتة لا تهتز ولا ترتجف، يصفهم المقوقس في خطابه إلى ملك الروم: "والله إنهم على قلتهم وضعفهم أقوى وأشد منا على كثرتنا وتفاوت قوتنا، إن الرجل الواحد منهم يعدل مائة رجل منا، ذلك لأنهم قومٌ الموت أحب إليهم من الحياة، يقاتل الرجل منهم وهو مستبسل، ويتمنى أن لا يرجع إلى أهله ولا بلده ولا ولده، ويرون أن لهم أجراً عظيماً فيمن قتلوا منا، ويقولون إنهم إنْ قُتلوا أدخلوا الجنة، ونحن قوم نكره الموت ونحب الحياة، فكيف نستقيم نحن وهؤلاء وكيف صبرنا معهم؟". ويصفهم رجل من عدوهم فيقول: "رأينا قوماً الموت أحب إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة". خرج ابن بقيلة وهو شيخ كبير ومعه إياس بن قبيصة الطائي وكان والي الحيرة من قبل كسرى ولاه بعد النعمان بن المنذر، فأتوا خالداً فقال لهم: "أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، فإن أنتم فعلتم فلكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم، وإن أبيتم فأعطوا الجزية، فإن أبيتم فقد أتيتكم بقوم هم أحرص على الموت منكم على الحياة، قال: وفي يد ابن بقيلة السم، قال: فقال له خالد: ما هذا؟ قال: هذا السم فإن أنت أعطيتني ما أريد وإلا شربته فلا أرجع إلى قومي بما لا يحبون، قال فأخذه خالد من يده وقال: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء، ثم ابتلعه، قال: فرجع إلى قومه وقال لهم: جئتكم من عند قوم لا يعمل فيهم السم، قال: فقال له إياس بن قبيصة: ما لنا في حربك من حاجة"(٢١٢). هذا هو خالد بن الوليد البطل المغوار يصف جنده البواسل بأنهم أحرص على الموت، فماذا حدث لجند العرب اليوم؟ على جند العرب اليوم أن يعتقد الفرد منهم أنه وهو يحارب يجب أن يكون أحرص على الموت منه على الحياة، عليه أن

٢١٢- راجع: ابن كثير، **البداية والنهاية**، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، طبعة دار هجر، ط ١، ج ٣، ص ٤٠٣، وأبو فرج الجوزي، **المنتظم في تاريخ الأمم والملوك**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ج ٤، ص ١٠٠.

يعتقد أنه لن تستقيم له الحياة ولا لأحفاده من بعده ولبني جنسه إلا إذا ناضل بقوة وبأس وشجاعة لتحقيق النصر ورد الأعداء عن بلادهم إما إلى موت يحفظ للنفس كرامتها، وإما إلى نصر مؤزر يسعد البلاد ويزيل الفساد عن أرض الآباء والأجداد. ومن أحب الموت فقد وهبت له الحياة.

ثانياً: الذنوب:

يعد عامل الذنوب بمثابة المحصلة النهائية والبوتقة التي تنصهر فيها العوامل السابقة لتخرج في تقنين دقيق يتوافق مع حجمها ليتحدد على ضوء ذلك حجم العقاب ونوعه حسبما يقتضيه هذا التقنين في ضوء الخطة الإلهية للثواب والعقاب في الأفراد والأمم والجماعات. فالظلم نتيجة ذنوب، والتنازع والترف والفساد كذلك، وما جاء على ذلك متطابقاً ومتشابهاً مع هذه الأمور، وبمقتضى هذه النتيجة وعلى قدر حجمها يتحدد العقاب ونوعه من قبل الله تعالى، مع اعتبار رحمة الله وغفرانه. قال تعالى عن بعض الأمم السابقة ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ ذكر أحد المفسرين المحدثين أن هذا النص وما يماثله، وهو يتكرر كثيراً في القرآن الكريم، أن الذنوب تهلك أصحابها، وأن الله هو الذي يهلك المذنبين بذنوبهم، وأن هذه سنّة ماضية، ولو لم يرها فرد في عمره القصير، أو جيل في أجله المحدود ولكنها سنّة تصير إليها الأمم حين تفشو فيها الذنوب، وحين تقوم حياتهم على الذنوب(٢١٣). وقصة أصحاب الفيل وقوم لوط وكثير من قصص الغابرين والمعاصرين خير شاهد على صدق هذا العامل.

يقول الشيخ محمد الغزالي: "إن العدوان الأجنبي على البلاد يكون عقاباً من الله تعالى لهذه البلاد بسبب فساد النفوس والأوضاع، وضياع مظاهر العدالة، واختلال موازين الاقتصاد واقتسام الشعب على طوائف أكثرها مضيع منهوك، وأقلها يمرح في نعيم الملوك"(٢١٤)!! وذكر أن بني إسرائيل سلط الله عليهم أعداءهم، استعمرت بلادهم لهذا السبب.

قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾(٢١٥)، ثم ذكر في المرة الثانية سقوط البلاد في يد الأعداء وتعرضهم للغزو حيث قال: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾(٢١٦). ويذكر القرطبي عوامل

٢١٣- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، دار الشروق ط ١٧، ١٤١٢هـ، ج ٢، ص ١٠٣٧.

٢١٤- محمد الغزالي، **المحاور الخمسة للقرآن الكريم**، ص ١١٢.

٢١٥- سورة الإسراء، الآية: ٤.

٢١٦- سورة الإسراء، الآية: ٥.

الانتصار والانكسار ويوضح أن المعاصي والذنوب من أسباب الانكسار حيث يقول: عند تفسير قوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾(٢١٧). قلت: هكذا يجب علينا نحن أن نفعل، لكن الأعمال القبيحة والنيات الفاسدة منعت من ذلك حتى ينكسر العدد الكبير منا قدام اليسير من العدو، كما شاهدناه غير مرة، وذلك بما كسبت أيدينا! وفي رواية، قال أبو الدرداء: "إنما تقاتلون بأعمالكم"، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: "هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم"(٢١٨). فالأعمال فاسدة والضعفاء مهملون والصبر قليل والاعتماد ضعيف والتقوى زائلة! قال تعالى: ﴿ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾(٢١٩) وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟﴾(٢٢٠) وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾(٢٢١) وقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾(٢٢٢) وقال: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٢٢٣) فهذه أسباب النصر وشروطه وهي معدومة عندنا غير موجودة فينا، فإنا لله وإنا إليه راجعون على ما أصابنا وحل بنا، بل لم يبق من الإسلام إلا ذكره، ولا من الدين إلا رسمه، لظهور الفساد ولكثرة الطغيان وقلة الرشاد، حتى استولى العدو شرقاً وغرباً وبحراً، وعمت الفتن وعظمت المحن ولا عاصم إلا من رحم(٢٢٤).

روي أن بعض الأمراء من بني مروان هرب إلى بلاد الحبشة، لما ظهرت ولاية بني العباس، فنزل ببلادهم فأتاه ملك الحبشة، وقال له: ما الذي جاء بك؟ قال: ولي الأمر غيرنا، فاستجرت بك، فقال أنتم تزعمون أن نبيكم حرم الخمر فلم شربتموها؟ فقال: إنما يفعل ذلك رعاع الناس الذين لا خلاق لهم، قال: وتقولون إنه حرم الحرير فلم لبستموه؟ فقال: إنما يفعله أتباع لنا، قال: وتخرجون إلى الصيد في طلب عصفور فتنزلون بالقرى، فتأخذون أموالهم، وتفسدون زروعهم، فقال: إنما يفعله الجهال، قال: لا والله بل بارزتم الله بالذنوب فسلبكم الملك(٢٢٥). أما لماذا كانت المعصية سبباً من أسباب الهزائم؟ فيجيب عن

٢١٧- سورة البقرة، الآية: ٢٥٠.

٢١٨- **سنن الترمذي**، كتاب الجهاد، طبعة الحلبي، ج ٦، ص ٢٩٠، وقال حديث حسن صحيح.

٢١٩- سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠.

٢٢٠- سورة المائدة، الآية: ٢٣.

٢٢١- سورة النمل، الآية: ١٢٨.

٢٢٢- سورة الحج، الآية: ٤٠.

٢٢٣- سورة الأنفال، الآية: ٤٥.

٢٢٤- **تفسير القرطبي**، ج ١، ص ١١٦٦-١١١٧.

٢٢٥- الطرطوشي، **سراج الملوك**، المطبعة المحمودية، ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م، ص ١٠٢.

ذلك ابن النفيس حيث يقول: "وإذا عصت هذه الملة النبي صلى الله عليه وسلم فهل يحدث لها بذلك في الدنيا عقوبة أو لا يحدث لها ذلك"؟ فرأى أنها لا بد وأن تعاقب على هذا العصيان وذلك لأن هذه الملة لو لم تعاقب على ذلك وقع عند الناس أن معصية هذا النبي غير ضارة في الدنيا، وذلك مما لا يشتد معه الحرص على التوبة وعلى ترك هذه المعصية فلذلك تكثر لا محالة، ويلزم ذلك شدة الفساد وكثرة المعاصي وقلة المبالاة بمخالفة هذا النبي صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك تصغير لقدره وتطريق إلى قلة المبالاة بمخالفة أوامره وذلك مما يبطل بعثته صلى الله عليه وسلم، فذلك لا بد وأن يعرض لهذه الملة عند كثرة عصيانهم عقوبة على فعل ذلك، وهذه العقوبة ليس يجوز أن تكون الخسف أو الطوفان ونحو ذلك مما يدل على شدة غضب الله تعالى، فإن ذلك ينافي زيادة عظمة هذا النبي صلى الله عليه وسلم؛ إذ يجوز أن تكون أمته مبجلين عند الله تعالى فلذلك لابد وأن تكون هذه العقوبة بسفك الدماء ونحو ذلك مما لا يحط من المنزلة ـ كثيراً بنبيه ـ وهذا القتل إنما يكون من الكفار وبالقتال أي بقتل الكفار لهم. أي لا شك أن يكون لهذه الأمة بسبب العصيان غزاة من الكفار والمقتول فيه مثاب. إلى أن يقول: هؤلاء الكفار ليسوا يملكون بلاد الإسلام جميعها، وإلا لكان ذلك يؤدي إلى انقراض هذا الدين، وذلك مما يحوج إلى نبي آخر وهو بعد ذلك النبي محال، فلذلك لابد وأن يكون ملكهم لبعض بلاد أهل هذه الملة، وملك هذه البلاد التي كثرت هذه المعاصي فيها جداً[٢٢٦]. ولا يعني هذا إثبات عقدة الذنب ولا نفيها كما هي عند المسيحيين، أما الحروب الكوارث فقد كانت سبباً في شعور كثيرين من علماء المسلمين وأتقيائهم بعقدة الذنب ـ حيث اعتدى الصليبيون على سوريا وفلسطين ومصر وشمال إفريقيا، كما اعتدى المغول على شرقي بلاد المسلمين خاصة العراق التي دمروها تدميراً كبيراً، حيث اعتقد الكثيرون منهم أن ما حل بالمسلمين كان بسبب غضب الله عليهم لعدم تمسكهم بالدين الحنيف ولعدم التزامهم بشريعته، وإغراقهم في الملذات التي نهى الله عنها. والمنهي عنه في نبذ عقدة الذنب ـ كما هي عند المسيحيين ـ هو الإسراف في الدعوة إلى نبذ الحياة الدنيوية والتفرغ للعبادة والانصراف عن العمل لكسب الرزق، لأن هذه الدعوة تؤدي إلى خراب العالم الإسلامي إذا انتشرت بين الناس. ولسائل أن يسأل: كيف تقولون بأن المعاصي سبب من أسباب الهزيمة والانكسار؟ بينما الغرب والبلاد التي تستولي على بلادنا يكثر فيها الفساد والمعاصي بأكثر ما عندنا أحياناً، وما نشاهده في وسائل إعلامهم وما يراه من يزور بلادهم وما يقرأ في كتبهم ومؤلفاتهم خير شاهد على

٢٢٦- ابن النفيس، **الرسالة الكاملية في السيرة النبوية**، تحقيق: عبد المنعم محمد عمر، وراجعه محمد عبد المجيد هريدي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ط ٢، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، ص ٢٢٢-٢٢٣.

ذلك. وللإجابة عن ذلك أقول: نعم عندهم معاصي ولكنها معاصي أبدان فقط ونحن شاركناهم في معاصي الأبدان ونتفوق عليهم في معاصي القلوب، فالحقد والحسد والكراهية والتي تؤدي بالبعض إلى بيع أوطانهم بثمن بخس وخيانة الأهل والأمانة الموكولة إليهم بمقابل وبغير مقابل أحياناً، إنما سببه الحقد والغل والحسد والتي تنهش في قلوبهم، وهذه المعاصي نتفوق على الغرب فيها بدرجات عالية وقديما قيل: تسعة أعشار الحسد عند العرب(٢٢٧). كما أن العوامل الأخرى للانتصار هم يتفوقون علينا فيها، فالعدل والحرية عندهم أكثر مما عندنا بكثير، والعلم والنظام ومعرفة أحوال العدو والاستعداد العسكري كل ذلك عندهم يتفوقون فيه علينا، فلو حارب العلم الجهل لانتصر العلم ولو حارب النظام الفوضى لانتصر النظام وهكذا، وهم كذلك يتفوقون علينا في العلم والنظام والأخذ بأسباب القوة. قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾(٢٢٨) وقال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾(٢٢٩).

يقول الشيخ محمد الغزالي: نظرت في أحوال المسلمين أواخر مقامهم بالأندلس فحكمت بأن طردهم من هذه البلاد كان قضاء عادلاً وسنة حضارية لا محيص عنها. وماذا بعد أن تشيع بينهم موبقات تأتي على الأخضر واليابس، ولا تقيم لهم عند الله حجة؟ قرأت هذه العناوين في أحد كتب الأدب: غرناطة والخمرة، غرناطة ومجالس الطرب، الشذوذ الجنسي، الزُّبُطُ والشعوذة. يقول شاعر فض الله فاه:

دع عنك قول عواذل ووشاة وأدر كئوسك يا أخا اللذات
وأخلع عذارك لاهيا في شربها وأقطع زمانك بين هاك وهات
خذها إليك بكف ساق أغيد لين المعاطف فاتر الحركات

ويقول الكتاب الذي بين يدي ـ لقد سجلت لنا المراجع الغرناطية كثيراً من مظاهر السكر

٢٢٧- ويرى أحد الباحثين أن عندهم أم معاصي القلوب وهو الكفر والإلحاد، مع كثرة كاثرة من فروع معاصي القلوب قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ (المائدة: ١٤) وقال: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ (الحشر: ١٤) ويرى أن السبب هو تحصيلهم الأسباب الدنيوية للنصر، وتفريط المسلمين في الأسباب الدينية والدنيوية، فوكلهم الله إلى أنفسهم وحجب عنهم نصره، فغلب من حاز سبباً من ليس عنده شيء. (أ. د. محمود حسن مخلوف أستاذ البلاغة والنقد بجامعة الأزهر والجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد باكستان).

٢٢٨- سورة الإسراء، الآية: ١٦.

٢٢٩- سورة الطلاق، الآيتان: ٨-٩.

والعربدة ولم تقتصر الأحفال الآثمة على مناسبات خاصة، بل كان الغرناطيون يبحثون عن اللذة في أعياد المسلمين والنصارى على السواء. أمن أجل هذا جاء الله بالعرب إلى أسبانيا؟! يقول المؤلف: إن السلاطين اهتموا بتلك الأحفال الماجنة، وخصصوا لها دارات في متنزهاتهم وقصورهم، وكانت الطبقة النبيلة الموالية لهم من الوزراء والقادة والقضاة قد سلكت نهجهم، وبنت لهم مساكن قبالة الحمراء، نظراً لحسن الموقع وطيب الهواء!. وتحدث المؤلف في فصل كالح عن الشذوذ واللوطية والغزل بالمذكر... إلى غير ذلك من الوساخات! أفتظن ذلك يمر دون عقوبة؟ وأين نذهب بقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾(٢٣٠). لقد ضاع الأندلس، وطرد العرب منه شر طردة، وما كان ينتظر من قدر الله غير ذلك! إن ذلك كله بعض الثمار المريرة لأغلاط كبيرة(٢٣١).

والإسلام لا يطلب العصمة الدائمة فذاك مستحيل، ولسنا ملائكة نقية المعدن موصولة أبدا بالسماء ونورها. إننا بشر نخطئ ونصيب ونعثر وننهض ونعتكر ونصفو والمطلوب إن غلطنا أن نصحح الغلط، وإذا سقطنا أن نتجاوز الزلل فإن من أصرَّ أحاطت به خطاياه فأردته. ولما كان الخطأ طبيعة في الإنسان، وجب أن تكون التوبة عادة لازمة له، ومن لطف الله أنه كتب على نفسه الرحمة، وأنه يهش للنادم إذا استقام بعد ما انحرف. يقول صاحب **تفسير المنار** عند تفسير قوله تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(٢٣٢) أي لا تظن يا محمد أو أيها المخاطب أنهم بمنجاة من العذاب الدنيوي ـ هم الذين استولى عليهم الغرور والفرح والبطر بكل عمل يعملونه ويرون أنه منتهى الكمال، فلا تنشط همهم إلى طلب المزيد والمسارعة في الخيرات ولا يقبلون الانتقاد على التقصير ـ أي متلبسون بالفوز والنجاة منه، وهو العذاب الذي يصيب الأمم التي فسدت أخلاقها وساءت أعمالها وكابرت الحق والعدل، وألفت الفساد والظلم، وهو على قسمين: عذاب هو أثر طبيعي اجتماعي للحال التي يكون عليها المبطلون بحسب سنة الله في الاجتماع البشري، وهو خذلان أهل الباطل والإفساد وانكسارهم وذهاب استقلالهم بنصر أهل الحق والعدل عليهم، وتمكينهم من رقابهم وديارهم وأحوالهم، ليحل الإصلاح محل الإفساد، والعدل مكان الظلم، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ

٢٣٠- سورة يونس، الآيتان: ٨١-٨٢.

٢٣١- محمد الغزالي، **المحاور الخمسة للقرآن الكريم**، ص ١١٠-١١١.

٢٣٢- سورة آل عمران، الآية: ١٨٨.

أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾(٢٣٣). وعذاب لا يكون أثراً طبيعياً، بل يسمى سخطاً سماويا كالزلزال والخسف والطوفان وغير ذلك من الجوائح المدمرة التي نزلت ببعض أقوام الأنبياء الذين كفروا بهم وكذبوهم وآذوهم، فكان الله يوفق بين أسباب ذلك العذاب المعتاد وأقدارها فينزلها بالقوم عند اشتداد عتوهم وإيذائهم لرسوله فيكونون من الهالكين. فإن قلت: إن ما قررته يشمل استعلاء بعض الأمم الشمالية على كثير من ممالك المسلمين الجنوبية فهل كان أولئك الشماليون على الحق والصلاح، وهؤلاء الجنوبيون على الباطل والفساد؟ أقل: نعم الأمر كذلك، فلولا أنهم يفضلونهم أخلاقاً وأعمالاً وعدلاً وإصلاحاً واتباعاً لسنن الله في نظام الاجتماع والسياسة لما سلطوا عليهم ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾(٢٣٤) ولكنه يهلكها وأهلها مفسدون في الأرض ـ كما ثبت في آيات كثيرة ـ والإيمان قد يكون من جملة أسباب النصر ولكن لذلك شروطاً وسنناً بينها الله في كتابه، ومن هذه الشروط والسنن تتذكر وتعلم ما عليه المسلمون الآن فإن الله ما فرط في الكتاب من شيء(٢٣٥). أما ما كان في "أُحد" فقد خرج بعضهم عن التقوى وخالفوا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم، وطمعوا في الغنيمة، وفشلوا وتنازعوا في الأمر فحرموا النصر، وكان حكمته فيما حصل هو تمحيص المؤمنين وتربيتهم بالفعل على إقامة سنن الله في الأسباب والمسببات "وبيان أن هذه السنن حاكمة حتى على الرسول، وأنه ليس له من أمر العباد شيء". وأن كل ما يصيبهم من المصائب فهو نتيجة عملهم إذ هو عقوبة طبيعية لهم.

ب- من عوامل الانتصار: الطاعة والاستقامة:

وإذا ما كانت المعاصي من أسباب الهزائم والانكسار أمام الأعداء فإن الطاعة لله عز وجل والاستقامة من أسباب النصر والفخار والمجد.

١- قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢٣٦) والمؤمنون ملتزمون في كل أمور الدنيا والدين فلا يخونون ولا يبيعون أهلهم وذويهم بدريهات ولا يقصرون في واجب عليهم تجاه الناس أو تجاه خالقهم.

٢- وقال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾(٢٣٧).

٢٣٣- سورة هود، الآية: ١٠٢.

٢٣٤- سورة هود، الآية: ١١٧.

٢٣٥- **تفسير المنار**، ج ٤، ص ٢٤١.

٢٣٦- سورة الروم، الآية: ٤٧.

٢٣٧- سورة غافر، الآية: ٥١.

٣- وقوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾(٢٣٨) فالآيتان تفيدان أن الله سبحانه وتعالى وعد ـ ووعده حق وصدق ـ أن النصر في الدنيا والتمكين في الأرض وعد للطائعين الملتزمين، وأن العصاة المجرمين لا تأييد لهم من الله سبحانه وتعالى.

٤- قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾(٢٣٩) فمن نصر الله وأطاعه والتزم حدوده نصره الله وثبته أمام الأعداء.

عوامل أخرى كثيرة للنصر منها:

١- من عوامل النصر: الصبر قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(٢٤٠). ومعنى الصبر في اللغة: حبس النفس عن الجزع، وأصل الكلمة، من الشدة والقوة، ومنه "الصبر" للدواء المعروف لشدة مرارته وكراهيته(٢٤١). وفي الاصطلاح: عرف الصبر بتعريفات كثيرة تدور كلها حول حبس النفس عن الجزع، والثبات في وجه المكاره والمصائب، حيث عرف صاحب **تفسير المنار** الصبر بأنه "قوة في النفس تمكنها من احتمال الآلام والمكاره بغير تبرم يحملها على ترك الحق أو اجتراح الباطل"(٢٤٢).

ونظرا لأهمية الصبر في الحياة وخاصة في النصر على الأعداء، نجد القرآن الكريم ذكر الصبر في نيف وسبعين موضعا، وأضاف أكثر الخيرات والدرجات إلى الصبر وجعلها ثمرة له(٢٤٣). ومن الآيات التي تبين فضل ثمرة الصبر قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ﴾(٢٤٤) ومن المعلوم أنهم لا يكونون أئمة وحكاما إلا إذا مكنهم الله في الأرض بالنصر والتأييد ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ

٢٣٨- سورة النور، الآية: ٥٥.

٢٣٩- سورة محمد، الآية: ٧.

٢٤٠- سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠.

٢٤١- **مختار الصحاح**: مادة صبر، ص ٣٥٤- ٣٥٥.

٢٤٢- الشيخ محمد عبده، **تفسير المنار**، ج ٤، ص ٢٧٧.

٢٤٣- الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج ٣، ص ٦٣.

٢٤٤- سورة السجدة، الآية: ٢٤.

ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[٢٤٥]. ومن مزايا الصبر أن الله يحب الصابرين وأنهم في معيته سبحانه، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[٢٤٦] وقوله: ﴿وَٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[٢٤٧] وذلك عند ذكره لقصة طالوت وجالوت، وقتل داود لجالوت، وكفى الصبر ميزة ومنزلة أن الله يكون مع الصابر برعايته، ويحفظه بحمايته، ويشد أزره، ويثبت خطاه، ويبلغه مناه، ثم إن الصبر بعد ذلك كله حلية المؤمنين، وشعار الصالحين، وزينة المتقين، وعنوان النصر، ودليل الفوز في الدنيا والآخرة، أ ليس الله معه؟ ومن كان الله معه فمعه القوة التي لا تقهر، والحارس الذي لا ينام، فكيف ينال منه العدو؟ وقديما قيل: إنما النصر صبر ساعة.

وقسم الماوردي الصبر على ستة أقسام:

١- الصبر على امتثال ما أمر الله به، والانتهاء عما نهى الله عنه... وليس لمن قل صبره على طاعة الله حظ من بر، ولا نصيب من صلاح ، ومن لم ير نفسه صبرا يكسبها ثوابا، ويدفع عنها عقابا كان مع سوء الاختيار بعديا من الرشاد، حقيقا بالضلال.

٢- الصبر على ما تقتضيه أوقاته من رزية قد أجهده الحزن عليها أو حادثة قد كده الهم بها، فإن الصبر عليها يؤدي إلى راحته منها.

٣- الصبر على ما فات إدراكه من رغبة مرجوة، وأعوز نيله من حسرة مأمولة، فمن فاته إدراك النجاح مثلا فعليه بالصبر، لأن الأسى على ما فات لا يجدى...

٤- الصبر فيما يخشى حدوثه من رهبة يخافها، أو يحذر حلول نكبة يخشاها، فلا يتعجل هم ما لم يأت، فإن أكثر الهموم كاذبة.

٥- الصبر فيما يتوقعه من رغبة يرجوها، وينتظر من نعمة يأملها، فعلى من يتطلع إلى نعمة ما ـ ومنها النصر بالتأكيد ـ أن يتحلى بالصبر حتى يستطيع أن يفكر، وأن يتخذ الوسائل التي تحقق له ما يرجوه. إن الذي يتطلع إلى النجاح في أي أمر من الأمور إذا التزم الصبر والثبات يكون أقرب إلى إدراك النجاح، أما إذا سيطر عليه التعجل والتسرع فإنه يفقد كثيرا من رشده، ولا يستطيع أن يتبين الطريق الصحيح الذي يكفل له تحقيق النجاح والنصر، فقد روي أن النبي صلى الله

٢٤٥- سورة آل عمران، الآية: ١٢٦.

٢٤٦- سورة آل عمران، الآية: ١٤٦.

٢٤٧- سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

عليه وسلم قال : "الصبر ضياء"(٢٤٨) حيث إنه يكشف ظلم الحيرة ويوضح حقائق الأمور، وقيل: من صبر ظفر، وقيل: بمفتاح عزيمة الصبر تعالج مغاليق الأمور.

٦- الصبر على ما نزل من مكروه، أو حل من أمر مخوف، فبالصبر في هذا تتضح وجوه الآراء، وتندفع مكايد الأعداء، فإن من قل صبره عزب رأيه، واشتد جزعه فصار صريع همومه، فريسة غمومه(٢٤٩). وهكذا نعلم مما سبق أن النصر مع الصبر، وأن مع العسر يسرا، إن مع العسر يسرا، ولن يغلب عسر يسرين. وإذا كان النصر مع الصبر، فإن مع الجبن والجزع الهزيمة والخذلان.

إن الفئة القليلة قد تغلب ـ بالصبر والثبات وطاعة القواد ـ الفئة الكثيرة التي أعوزها الصبر والاتحاد، مع طاعة القواد، لأن نصر الله مع الصابرين، أي جرت سنته بأن يكون النصر أثراً للثبات والصبر، وأن أهل الجزع والجبن هم أعوان لعدوهم على أنفسهم، وهذا مشاهد في كل زمان، وهو كثير مطرد، قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(٢٥٠).

٢- **ومن عوامل النصر: الإيمان:**

قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٢٥١). معنى الإيمان في اللغة: التصديق: يعنى اعتقاد الصدق ومحله القلب قال تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾(٢٥٢) أي بمصدق، وكذلك الأمان، والله مؤمن أوليائه من العذاب، ومن أسماء الله "المؤمن المهيمن" لأنه سبحانه أمن الناس من أن يقع عليهم ظلم. وفي الاصطلاح: هو التصديق والإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإيمان معرفة القلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان. وعلى ذلك فالإيمان الذي اكتملت عناصره ومقوماته يجعل الإنسان شجاعا في الحرب فلا يهرب ولا يجبن، وهذه الصفات وهي: الشجاعة والإقدام من أهم عوامل النصر على الأعداء. كما أن الإيمان يطلق النفس من قيودها المادية، ويحررها من العبودية للهوى والشهوات، كما يحررها من حب الدنيا وملذاتها، وإذا كان البحث قد بيّن أن من أسباب الهزائم حب الدنيا والمعاصي وهما أكبر الدوافع للإنسان إلى ارتكاب الشرور والآثام، والإيمان يحرر الإنسان من

٢٤٨- **صحيح مسلم**، كتاب الطهارة، فضل الوضوء، ج ١، ص ٢٠٣.

٢٤٩- **أدب الدنيا والدين**، ص ٢٦١-٢٦٤.

٢٥٠- سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

٢٥١- سورة الروم، الآية: ٤٧.

٢٥٢- سورة يوسف، الآية: ١٧.

هذه القيود فإنه بذلك يكون قد قضى على أهم عنصرين من عناصر الهزيمة أمام العدو. وإذا تحررنا من أسباب الهزائم، فإننا بذلك سننتصر بإذن الله تعالى. كذلك الإيمان الحق يدفع صاحبه إلى العمل الصالح الذي يتضمن كل خير وينطوي على شتى الفضائل الخلقية من الصدق والعدل والإيثار والشجاعة، فالمؤمن لا يخون وطنه ولا المسلمين، ولا يظلم المسلم ولا غير المسلم وكذلك يؤثر غيره على نفسه في المصالح الدنيوية، كما يدفعه إيمانه إلى الشجاعة والإقدام، وكل ذلك من عوامل النصر التي لا تتغير ولا تتبدل بتغير الزمان والمكان. قال الغزالي: "إن الإيمان بالله ورسوله من غير ارتياب هو قوة اليقين، وثمرة العقل، ومنتهى الحكمة، والمجاهدة بالمال هي السخاء الذي يرجع إلى ضبط الشهوة، والمجاهدة بالنفس راجعة إلى الشجاعة التي ترجع لاستعمال القوة الغضبية على شرط حدة الاعتدال"(٢٥٣).

ومن ثمرات الإيمان: العمل الصالح وهو ما تصلح به الدنيا والدين، ولذلك قرن الإيمان بالعمل الصالح في كثير من آيات القرآن الكريم، وسنة الله في كونه أن من يعمر الأرض وينشر الخير والصلاح فإنه يمكن وينتصر، ومن يخرب وينشر الفساد والظلم فإنه يهزم ويندحر، مهما كان دينه أو اعتقاده. ومن ثمرات الإيمان أنه يحمي صاحبه من سلطان غرائزه، ومما هو معلوم أن للغرائز سلطانا كبيرا على الإنسان، وهذه الغرائز تتجلى على أشدها في الشباب، لأن الشباب شعلة متوهجة لعظم طاقته الحيوية، وقوة دوافعه النفسية، وهذه الغرائز قد تدفع الإنسان إلى ارتكاب الشرور والآثام والمعاصي والجرائم، ولا يعصم الإنسان من خطرها إلا الإيمان، وما حدث لسيدنا يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز في القصة التي حكاها القرآن الكريم، والتي مفادها أن الإيمان بالله هو الذي عصم يوسف عليه السلام من الوقوع في الرذيلة والمعصية، والوقوع في المعاصي ـ كما سبق ـ من أسباب الهزيمة والانكسار، وفي التخلص من أسباب الهزيمة سبب من أسباب النصر.

ومما يدل على أنه كلما زادت المعاصي ضعف الإيمان، وكلما زاد الإيمان نقصت المعاصي قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن"(٢٥٤).

ومما سبق يفهم أن للإيمان بالله ثمرات تكون سببا لنصر البلاد وسعادتها وكذلك تكون سببا لتأييد الله للمؤمنين ونصره إياهم. إن الإيمان بالله تعالى والتصديق بلقائه من أعظم أسباب الصبر والثبات

٢٥٣- **إحياء علوم الدين**، ج ٣، ص ٦٠.

٢٥٤- **صحيح البخاري**، كتاب المظالم، باب النهي بغير إذن صاحبه، ج ٣، ص ١٧٨.

في مواقف البلاء، فإن الذي يؤمن بأن له إلهاً غالباً على أمره يمده بمعونته الإلهية، كما أمده بالقوى الروحية والجسدية، فإذا ظفر بإذنه كان مصلحاً في الأرض معمراً فيها، وإذا قبضه إليه بانتهاء أجله المسمى كان في رحمته وجنته ناعماً فيها، لهو جدير بأن يستخف بالأهوال، ويثبت في القتال ثبات الجبال.

٣- إن طاعة الجنود للقائد في كل ما يأمر به وينهى عنه شرط في الظفر واستقامة الأمر، وقوانين الجندية في هذا الزمان مبنية على طاعة الجيش لقواده في المنشط والمكره.

٤- أن التوجه إلى الله تعالى بالدعاء مفيد في القتال، قال تعالى: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾(٢٥٥) إذ عطفها بالفاء على آية الدعاء، ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾(٢٥٦).

٥- ينبغي للأمير أن لا يستضعف العدو وأن لا يظن به الوهن حتى ولو كان ضعيفا، بل يجب عليه أن يستعد له استعداده للعدو القوي، ويهيئ الأسباب القوية لقتاله، قال الطرطوشي: من حزم الملك أن لا يحقر عدوه ولو كان ذليلا، ولا يغفل عنه ولو كان حقيرا، فكم من برغوث أسهر فيلا، ومنع الرقاد ملكا جليلا(٢٥٧). وقال المالقي: من استضعف عدوه اغتر، ومن اغتر ظفر به عدوه(٢٥٨). وقيل: لا ظفر مع بغي ولا تغتر بالأقوياء لفضل قوتهم على الضعفاء(٢٥٩).

خاتمة البحث وأهم ما جاء به:

نخلص مما سبق أن الإسلام بيّن لنا عوامل الهزيمة والانكسار أوضح بيان وحذرنا منها، كما أوضح لنا أسباب النصر وأمرنا بها. وإذا كنا نريد النصر والعزة والسعادة لبلادنا وشعوبنا فعلينا الابتعاد عن عوامل الهزيمة والأخذ بأسباب النصر(٢٦٠)، وها هي أهم عوامل الانكسار والانتصار.

٢٥٥- سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

٢٥٦- سورة البقرة، الآية: ٢٥٠.

٢٥٧- الطرطوشي، **سراج الملوك**، ج ٢، ص ٦٧٧.

٢٥٨- المالقي، **الشهب اللامعة في السياسة النافعة**، ص ٢٤٢.

٢٥٩- **سراج الملوك**، ج ٢، ص ٧٠٥.

٢٦٠- ومما تجب ملاحظته أن ما جاء بهذا البحث ليس بدعا ولا مبتكرا، بل كتب فيه الكثيرون، وأن هذه العوامل التي ذكرت يكاد يعلمها الكثير من القادة والعلماء وحتى كثير من عامة الشعب، فما أكثر النظريات السياسية والعسكرية التي يعلمها الكثيرون سواء الإسلامية منها أم الغربية، ولكن العجب كل العجب أن من يلي أمرنا لا يعمل بهذه العوامل. أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليه ورسوله، إن المهم ليس القول بل العمل ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ (الصف: ٣) لعل في جيل الثورات من يعمل بهذه العوامل.

١- الظلم بكل أنواعه وصوره ـ بما فيه ظلم الإنسان لنفسه ـ من عوامل الانكسار، كما أن العدل بأنواعه المتعددة من أسباب النصر، فعلينا بالتخلي عن الظلم والتحلي بالعدل إن أردنا النصر.

٢- الفرقة والانقسام والتنازع الداخلي بين أفراد المجتمع وطوائفه والتي يغذيها، بل ويزرعها الأعداء بصورة لا تكاد تحصى ولا تعد من أسباب الهزيمة، كما أن الوحدة والاعتصام من أسباب النصر، فعلى الحكومات في بلادنا العمل على إزالة كل أسباب الخلاف بين طوائف الشعب بنشر العدل وسيادة القانون، كما أن عليها الأخذ بيد من حديد من يحاول تفريق وحدة الأمة والوطن ـ سواء أكان من الداخل أم من الخارج ـ حتى تتمكن الأمة من مواجهة الأخطار والأعداء وهي متماسكة من الداخل.

٣- على من يوالون الأعداء على بلادهم الرجوع عن أفعالهم لأن في فعلهم هذا ضرر بهم وبأهلهم، فالهزيمة من الأعداء ضررها على الجميع بلا استثناء، كما على الحكومات أن تعمل جاهدة على كشف هؤلاء، وأن تطبق عليهم القانون بشدة ودون هوادة حتى يرتدعوا هم وغيرهم ممن يفكر في مثل صنيعهم.

٤- على الدولة والمسئولين فيها أن تأخذ بكل أسباب القوة العلمية والاقتصادية والحربية، والتي منحنا الله الكثير منها، وما علينا إلا استغلالها، وذلك لأن الضعيف يغري بالاعتداء عليه، أما القوة فهي ترهب العدو فتجعله يستكين ولا يفكر في الاعتداء علينا.

٥- على المسلمين الابتعاد عن المعاصي بكل أنواعها البدنية والقلبية، والحد من حب الدنيا الذي هو رأس كل خطيئة بالزهد فيها قدر الإمكان، حتى يتمكن الإنسان من السيطرة على هواه، لأن من يسيطر عليه هواه يضر نفسه والمجتمع والبشرية إن هو تمكن من السيطرة والغلبة في الأرض.

٦- وهناك عوامل عديدة للنصر منها الصبر عند لقاء العدو، والتحلي بالإيمان الصادق، وعدم استضعاف العدو، وطاعة الجنود لقائدهم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. مع خالص الدعاء من القلب أن يتقبل الله هذا العمل، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم وأن يجزيني عنه يوم الدين، وأن ينفع به كل من قرأه واطلع عليه، إن ربي قريب مجيب وهو بالإجابة جدير.

Rise and Fall of Nations

The writer tries to analyze the causes of decline of nations and through this analysis arrives at an understanding of the positive factors for rise and success in the life of a nation. The basic premises of his argument have been derived from those eternal laws of success and failure that are discernible from the Qur'ān and *Sunnah* coupled with their explications by the scholars of Islam. The main concern of the writer is the present predicament of the Muslim *Umma* and he means through this paper to contribute to the efforts of its revival in future.

Among the causes of decline identified by him with reference to the guiding principles available in the Qur'ān and the *Sunnah* include: sectarian and other domestic divisions, unjust practices prevailing in socio-economic and political spheres, the fifth column in the Muslims' ranks, negligence of pursuing means of power and strength, excessive obsession with worldly matters and proliferation of practices prohibited by Islam. By the same token, the factors of success and victory include: unity, commitment, justice and fair play, mutual solidarity among Muslims, pursuit of the sources of strength, austerity, God-consciousness and perseverance, strength of faith, discipline including loyalty to the leader and last but not the least supplicating to Allah.

****